موقع أسرار الروايات للنشر الإلكتروني
www.secretsofstories.com

دِيلُمَاف

نوفيلا

إسراء ناصر

إحتفالية العيد

الكتـاب: ديلماف
التصنيـف: نوفيلا
المـؤلـف: إسراء ناصر
تصميم الغلاف: غادة عز العرب
التنسيق الداخلى: إيمان أبو الغيط
الإخراج الفني: موقع أسرار الروايات
لمزيد من أعمال المؤلف : هنا / هنا

بيانات عن الموقع
رقم الواتس:
٠١٠٦٦٥٠٩٦٠٦
الموقع الالكتروني:
https://www.secretsofstories.com
صفحة الفيس بوك:
https://www.facebook.com/secretsofstoriesbooks

أسرار الروايات
للنشر الإلكتروني

هذا الكتاب قام بالعمل عليه فريق موقع أسرار الروايات، إذا لم يتم تحميله من على منصتنا فيعتبر إنتهاك لحقوق ملكية الموقع، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

تنويه هام: النوفيلا لا تمت للو اقع بصلة، الأحداث تدور ببلدة مجازيّة ليس لها وجود على أرض الو اقع، هذه مجرد أفكار خيالية تخرج للنور ليس إلا..

ماذا إذا كان حرفان داميان بداية لعدلٍ لا نهاية له؟!

ربما الأمر كله يحتاج لروح مغوارة لا أكثر.. وبالتأكيد شمس الحق لا تُنجب سوى المحاربين.

تقول في منتهى الروعه ابداعه
وهي البدر حاضر بنوره حلاها
العَنُود الإسم والوصف القلم ذاعه
اخت الرجال اللي تعلى غلاها
مهره اصيله في خلقها طاعه
تتعب نفوس وتهز قلب احتواها
ليت للشعر حرف يدوم من الزمن ساعه
كان اجنده خادم لعينك وانا حده فداها
واكتب بصدره عهد الوفاء ياخيتي راعه
تشهد لا لاح البصر شاهد يثبت وفاها
اذكر الله من الحسد وارتجيه بسماعه
يحفظك قرة العين ياطيب شاذي هواها
للطهر عنوان ساري مساري الشرف في رباعه
والثغر باسم على طرف ألحفا بادي حياها
ياوخيه لأظلمت بي الدنيا ولأصاب قلبي ملاعه
لقيتك لي سند راكن يطوي العتب زايد شقاها
سد في وجه النقص تبدي مناعه
بعزه الله شامخه والفداء من وريدي عطاها

تباعدنا الدروب ايام والقلوب تقاربنا طواعه
نجدد فرحنا ويطرب الخافق يمت لقاها
لا حرمني الباري وجودك ياهنا همس استماعه
تبقى نقئ الروح في وريدي للوريدي مجرى سراها
افتخر بك وانا خي العنود دام الراس مبحر شراعه
ولي انقضى عمري وصيت الحرف في مماتي يحسن عزاها
(لقائلها)

المُقدِمة

في بقعةٍ ما على وجه الأرض..

يعدو كفهد مفترس يريد الحصول على تلك الوجبة الشهية، غزال رشيقة تعدو أمامه بسرعة متزعزعة لا تُذكر أمام سرعته الفذّة؛ كادت قواه أن تخور فيسقط أرضًا مُعلنًا استسلامه أمام تلك الجنود الباطشة التى لا ترحم مُناهضيها؛ ولكنه استعاد رباطة جأشه من جديد بعدما أنتعشت ذاكرته بمشهد صديقه الذى قُتل على أيديهم فجر الأمس أمام عيناه السوداء القاتمة أثناء مقاومتهما للجنود؛ بعدما فرّ هو هاربًا بتوسل من صديقه كى يواصل جهاده منقذًا بلاده من بطش هؤلاء.

مقاومته لم تستمر كثيرًا فقواه لا تسمح له بالعدو أكثر من ذلك، سقط أرضًا فوق الأرض الوعرة فاصطدمت ركبتاه بصلبتها، كتم آلامه داخله مصطكًا على أسنانه، مغمض العينين، رافعًا رأسه لأعلى يشتكي لرب العالمين كربه. التفّت الجنود التى تستقر فوق ظهران

خيولها السوداء حوله؛ مُشكّلة هالة سوداء مخيفة لناظرها من أعلى قمة الجبال من حوله، أسند جبهته فوق تراب أرضه ثم بدأ بترديد بعض آيات الله ولحقتها الشهادة فهو على يقين تام أن تلك نهايته لا محالة.

- وأخيرًا قد سقطت بين أيدينا يا "أسد"

نطقها قائد الجنود الذي كان يضع قماشة سوداء فوق وجهه خافيًا نصفه بتشف واضح بعدما ترك حصانه ووقف قبالته يستمتع بلحظاته الأخيرة أمامه؛ بينما كانت عيناه الزرقاء القاتمة تلمع بوميض الإنتصار فتلك تعتبر شيمة في تاريخه مع سيده الذي ينتظر خبره على أحر من الجمر بعد سنوات من البحث عنه، فذاك الـ "أسد" ليس بالهين أبدًا. رغم إنهاكه إلا أنه لن يفوت تلك الفرصة؛ سيحارب لآخر أنفاسه المغوارة:

- أتعتقد أنكوا بقتلي سوف تهنئوا بتلك الأرض!!

رفع "أسد" زاوية فمه بسخرية ثم تابع بصوت وهن:

- سيأتي بعدي من يثبت دائمًا أن تلك الأرض حرة، وإن رحل بشرف مثلي سيأتي غيره، ويأتي ويأتي ويأتي، إلى أن يتم إنجاء سكان تلك الأرض البريئة من أفعالكم المشينة

لم يلبث أن ينهى جملته إلا وتلقي ضربة عنيفة من قدم القائد المكسوّة بحذاء أسود متين، تسببت الضربة فى نزول سيل من الدماء من جانب فمه الملطخ بتراب أرضه. رد عليه القائد باستحقار لشخصه:

- لن أهدر وقتي فى الحديث مع خائن مثلك يريد تضليل سكان تلك الأرض .. ثم استطرد قائلًا بصوت جهوري يصم الأذن:

- "أمين"

- لكَ ما طلبت سيد "أنصاري "

أعطي له الجندي المساعد سيف طويل ذو سن فاتك يخترق الجبال بضربة واحدة ثم عاد موضعه مرة أخري، نظر"أنصاري" نظرة مطولة للقابع أمامه أرضًا ثم طعنه طعنة قوية في منتصف البطن دون أن يرف له جفن أو تهتز عضلة واحدة في وجهه. ركب خيله مرة أخري ثم انطلق بجنوده اتجاه مملكته تاركًا جثمان "أسد" الساكن تمامًا خلفه حاملًا خبر وفاة الخائن الهارب من العدالة.

وصل "أنصاري" مملكته بجنوده دون أن يصيبهم خدش واحد، رأى تجمع هائل من سكان البلدة أمام أبواب القصر الملكي الحديدية فدلف سريعًا كي يهنئ سيده بالإنتصار على خائن بلدتهم..

- تمّ ما طلبت يا صَيدَن

قالها "أنصاري" منحنيًا أمام سيده ورب عمله فابتسم صَيدَن بحبور ليقول بحماس:

- أين الجثمان؟!

تقلصت ملامح "أنصاري" فقال مترددًا:

- تركته هناك "بكري" صَيدَن، لم أعلم رغبتك في رؤيته مسبقًا

امتعضت ملامح "بكري" ولكنه استعاد سعادته سريعًا بخبر ممات ألد أعداءه قائلًا:

- لا عليك "أنصاري" ستأكله الذئاب شئنا أم أبينا، فهو لقمتهم السائغة الليلة

صَيدَن: سُلطان ، ملك

قهقه "أنصاري" فلحقه الـ صَيدَن ثم دلفوا سويًا سطح القصر، طلت عليهم وجوه سكان البلدة التي تنتظر مفاجأة عاهلهم الذى أخبرهم بها مسبقًا قبل ساعات، عمّ الصمت المكان متأهبين لسماع ما يقول فبدأ حديثه بابتسامة واسعة تزين ثغره:

- قضينا عليه، قضينا على خائن البلدة الهارب من العدالة، قضينا على "أسد فياض"

لحق كلماته برفع سيفه لأعلى دليلًا على النصر، فوصلت لمسامعه تصفيقات وتهليل شعبه وزغاريد النسوة من أسفل غطاء وجوههن،

لم يلاحظ أيًا منهم العيون الدامعة وسط كل تلك الغبطة؛ سحبت نفسها رويدًا رويدًا ممسكة بيد طفلتها تجرها خلفها في كآبة؛ في حين وصلت لمسامعها هتافات سكان البلدة الحارّة المزوجة بفرحة الإنتصار:

- تحيا "ديلمااف"، تحيا "ديلمااف."

***

الفصل الأول

(١)

بقرية صغيرة بالقرب من ديلماف..

عيناها حادة كنصل رمح فاتك يعرف طريقه جيدًا حيثُ منتصف جبهة أحدهم، حماس فرستها الجامحة لا يقل عن حماسها ونارها المتأججة داخلها، تعدو بسرعة فذّة لا يقدر على وقفها جبل من الجليد حتى، ازدادت سرعتها عن حدها المعتاد هذه المرة فكلما تأججت نارها أكثر كلما ازدادت سرعتها معتقدة بذلك أنها تتخلص من تلك الهواجس والذكريات التى تطاردها.

يبدو أن فرستها تناست أمر وجودها فوقها؛ فبدأت بالعدو بسرعة فائقة أكثر من ذي قبل لدرجة أنها أخذت تتمايل فوقها فاقدة زمام توازنها تمامًا رغم تمسكها باللجام جيدًا، دبّ الرعب فى قلبها؛ شرعت تنظر يمينًا ويسارًا بجنون ممزوج بخوف من الموت قبل أن تصل لمرادها؛ تبحث عن مَن يساعدها فى تلك الورطة ولكن دون جدوى فالصحراء وجبالها الوعرة تطل عليها من كل حدبٍ وصوب.

فقدت كل سيطرتها على الفرسة حتى لجامها أصابها بجروح بليغة فى باطن يدها، ندمت أشد الندم على إعطائها فرصة الإنطلاق بها لهذا

الحد من السرعة ولكن لم يعد الندم يجدي نفعًا، عليها أن تفكر في حلٍ ما. رفعت رأسها منتبهة لمرمى بصرها فوجدت انحدار يعقبه شلالات مياه عالية لن تنجو منها؛ لم يعد هناك مهرب من الموت أيتها المحاربة الصغيرة حان وقت الاستسلام.

- أعطني يدك

التفتت لمصدر الصوت فوجدت شاب يماثلها في العمر تقريبًا يمد لها يد العون من فوق حصانه لا تعلم من أين أتى ولكن عيونه الزيتونية كانت كفيلة لتجاهلها لمصدر مجيئه، ظلت تنظر ليده الممدودة ولمظهر الانحدار المخيف الذي بات على مقربةٍ منها عدة مرات مترددة في قبول مساعدته، فهتف لها بلهجة آمرة حادة:

- بماذا تفكر؟! أتنتظر الموت أيها الأحمق!! .. ثم استطرد قائلًا بنبرة أعلى من ذي قبل وسط حيرتها:

- أعطني يدك، هيا

لم تفهم سر مناداته لها بصيغة ذكورية، ثم أُنير عقلها بملابسها التي ترتديها وطرف غطاء رأسها الذي لا يُظهر سوى عينيها الخاليتين تمامًا من الكحل الأسود الذي يميزها عن الرجال، ورغم ذلك أصابها الإنزعاج لمناداته لها بتلك الصيغة التي لا ترضي كبريائها كأنثى؛ ولكنها استفاقت سريعًا من تلك الهراءات على عبارته الجهورية:

- الانحدار يقترب، هات يدك

نظرت بهلع للانحدار الذي يؤدي لمياه الشلالات بالقرية الذي ستسقط منه للموت بعد ثوانٍ معدودة. داهمها حصانه يمنع فرستها من التقدم أكثر، فرفعت الأخيرة قدماها الأماميتان عاليًا قبل حد السماء بقليل مصدرة صهيل مرعب أيقظ القرية كلها، وعلى اثره سقطت الأخرى من فوق ظهرها أرضًا مصطدمة بالسطح الوعر فاقدة للوعي..

- يا الهى لقد فقد وعيه!!

نطقها الشاب بقلق وهو يتطلع لجفناها المطبقان تمامًا ثم هرع إليها ليشد اللثام من فوق وجهها ففوجئ بملامحها الناعمة التي تُظهر بوضوح أنها أنثى لا ذكر كما نعتها منذُ قليل، فأردف بإعجاب وهو يتأمل بشرتها الخمرية اللامعة:

- عيناكِ الحادتان لا تبدي ذلك أبدًا

- وخنجري أيضًا لا يُظهر ذلك أبدًا

استفاقت من نومتها على حين غرة وهى تشهر الخنجر الفضي في وجهه جالسة نصف جلسة فوق الأرض الوعرة، فرجع هو للوراء تلقائيًا مرتعبًا من طريقتها الفجائية قائلًا بخوف:

- هل أعتبر هذه مكافأتي على انقاذي لك؟!

وضعت خنجرها فوق عرقه النابض بعنقه في مهارة فائقة كأضخم محارب قائلة بنزق وهى تعقد حاجبيها الكثيفان السوداوان:

- وهل هذه طريقة تنقذني بها أيها الأحمق الغبي، كنت ستتسبب في موتي

رد عليها بتعثر وسط نظراته المتوترة بين الخنجر فوق عنقه وبينها:

- لقد مددت لكِ يدى ....و..وأنتِ رفضتِ، لذا تصرفت من تلقاء نفسى

ابتعدت عنه بعدما أسقطته فوق ظهره بدفعة من قبضتها ناهضة من جلستهم لتقول بتقزز:

- يا ليتك لم تفكر أبدًا

- لن أقترب منك وأعاتبك على ما فعلتِ لأنكِ أنثى وأنا لا أقاتل النساء

قالها بغيظ وهو يبعد عن ملابسه الرمال الخشنة بعدما وقف على قدميه، فالتوى ثغرها بسخرية وهى تمتطي فرستها من جديد قائلة بثقة بالغة:

- ليس ذلك السبب يا أبو الدهاء، فأنت لن تقترب مني لأنك خائف فأنا أقوى منك، ليس إلا

لم يقدر على الرد عليها فالصدمة ألجمت لسانه؛ بينما هى ضحكت بسخرية على مظهر وجهه المحمر غضبًا ثم رحلت من أمامه بفرستها في

سرعة مقبولة بعدما أعادت لثام وجهها، ليردد هو بتفكير وعدم ثقة:

- أيعقل أن أكون خائف منها؟....!

***

(٢)

حيثُ تحريك المال بالبيع والشراء لغرض الربح، انتبه الناس لمشادة كلامية بين سيدة تتشح بالسواد يستند عليها عجوز مقوس الظهر ذو جسد ضئيل يبدو زوجها، وحرّاس من القصر الملكي بـ"ديلماف" البلدة القريبة من قريتهم "روماف". رغم انفصال "روماف" عن البلدة إلا أنها تقع تحت إمرتهم أيضًا فهي تابعة لها..

- اتركي العجوز أيتها السوداء، صدر أمر باعتقاله

نطقها أحد الحراس بصوت جهوري وهو يحاول إبعادها عن زوجها الضعيف كي يستطع القبض عليه، فرددت برجاء وهي تحول بينهما:

- من أجل الله يا بني اتركه، لا يستطع العيش من دوني أنا ظهره في الحياة الذي يتكئ عليه، أنظر لحالته سيئة للغاية المرض تملك منه

- كان يجب أن يضع ذلك في حسبانه عندما شرع في بيع أسماك سامّة للناس بالقرية، أودت بحياة مائة شخص للموت

نطقها باشمئزاز واستحقار فهزت رأسها بنفي قائلة بإصرار:

- هذا افتراء، زوجي لا يفعل شيئًا مشين كهذا، الصيّاد هو المذنب

أمسك برسغها يريد إبعادها عن طريقه للقبض عليه مرددًا:

- هذا ليس من شأني أيتها الغبية أنا أنفذ الأوامر فقط، ابتعدي

هتف أحد الحراس من خلفه متسائلًا:

- هل أقطع رأسها سيد "جاد"، إنها تعارض أوامر "بكري" صَيدَن

رفع "جاد" قائد الحرّاس كفه قائلًا:

- لا داعي لذلك، لا أريد إفساد يومي بسبب تلك المرأة الغبية، سأبعدها بطريقتي الخاصة

فور إنهاء جملته دفعها بقوة فسقطت على الأرض مما أدى لظهور جُرح نازف أعلى جبهتها. لم يتقدم أحد من المشاهدين لمساعدتها أو الدفاع عنها رغم أنها امرأة ضعيفة لا عائل لها، تملك الخوف منهم.. يخشون أن يطالهم العذاب أيضًا كزوجها. تأوهت في صمت وقد سالت عَبَرات أنين حارة من عيناها فوق وجنتيها ولكن سرعان ما تذكرت أمر زوجها فتحاملت على نفسها ونهضت بملابسها السوداء التي تلطخت بتراب الأرض، لتجد الحراس يلتفون حول العجوز..

- لم يفعل شيئًا يا ظلمة، اتركوه وشأنه

تحدثت ببكاء مرير ولكن لا حياة لمن تنادي، تجاهل توسلاتها الحرّاس بأمر من "جاد"، فأضافت بتوسل وهي تعدو خلف خيولهم:

- خذوني بدلًا منه، من أجل الله اتركوه إنه مريض يحتاجني

ظلّت تسير خلفهم وهي تبكي فراق زوجها المجرور الذي تلتف حول يداه حبال غليظة متصلة بإحدى خيولهم إلى أن سقطت أرضًا؛ لم تستطع مواصلة السير أكثر من ذلك حيث ازدادت سرعتهم بعدما وصلوا نهاية السوق التجاري بـ "روماف"، أيقنت أن ليس هناك سبيل لعودته مرة أخرى فعاودت السير لبضاعتها التي تستقر في منتصف السوق بجسد هزيل. أبصرت عصاه الغليظة التي كان يتكئ عليها تسكن الأرض فحملتها ليزداد انتحابها أمام عيون الجميع، وأمام عيونه أيضًا..

- أبي، لِما يحدث هذا، ولِما لم يساعدها أحد؟!

تسائلت فتاة صغيرة في السوق بحزن فجاوبها أبيها بانكسار:

- لا يوجد مجال للكلام بعد سنون من الصمت يا إبنتي.

***

(٣)

دلفت منزلهم البسيط، مربع الشكل؛ المكوّن من طابق واحد فقط.. يتكون من الدعون - أغصان النخيل- وحطب الجندل - نوع من الخشب- أو جذوع النخيل. رأت والدتها تُطعم البقرة خاصتهم أمام

باب منزلهم الصغير الذي بالكاد يتسع لهم؛ فاقتربت منها على مهل بعدما تركت فرستها تأكل من أوراق النباتات التي تحيط منزلهم من كل جانب.

- سلامُ عليكم

نظرت والدتها تجاهها عندما انتبهت لوجودها لتهرع إليها قائلة بقلق:

- ما هذا المظهر؟ ما الذي حدث خلال رحلتك مع "دهب"؟

غطاء شعرها المخلوع جزئيًا، حبات العرق المتجمعة فوق وجهها، رمال القرية التي تستقر على ملابسها السوداء، والإنهاك البادي على وجهها كلها أشياء توحي بأن هناك خطبٌ ما. ألجم لسانها، ظلت تفرك أصابع يدها بتوتر لا تجد ما تقول مما جعل والدتها تمسك برسغها قائلة بزعق:

- تحدثي "عَنُود"

لمحت جروح باطن كفها الخمري عندما أمسكت برسغها ورجّته بين قبضتها الحاكمة، فجحظت عيناها وهى تتابع:

- جروح أيضًا

- لا تقلقي يا أمي، جروح بسيطة ستُشفى مع الوقت، صدقيني

ولكن لا حياة لمن تنادي، جرّتها والدتها خلفها إلى وسط أرض منزلهم ثم جلبت صحن من الفخار يحتوي على مادة لا سائلة ولا صلبة باللون الأخضر، ثم بدأت في وضعها على أماكن الجروح برفق..

- سلمت يداكِ، أمي

نطقتها "عَنُود" بعدما انتهت والدتها من مداواة جراحها وهى تتطلع لوجهها المنحني. الجمود كان يسيطر على وجه والدتها وهى تربط باطن كفها بقطعة قماش من جلبابها الأسود الفضفاض نظرًا لافتقارهم للإمكانيات، شعرت "عَنُود" بالسوء لما أصاب والدتها من تحت رأسها فقالت بأسف:

- صدقيني لم أكن أعرف أن زمامها سيفلت من يدي، أعلم أنكِ تخشين عليّ من نسمات الهواء ولكن...

- انتهى "عَنُود"، أنتِ تعرفين جيدًا أنني لا أحب تلك الرحلات العنيفة وخاصةً مع "دهب" ومع ذلك تركتك على ثقة أنكِ ستعودين إليّ بخير

قاطعتها والدتها بصرامة لتكمل بنظرة حادة:

- أنتِ لم تكوني ناضجة تجاه تلك الثقة، لذا لا خروج لكِ منذُ الآن بدوني

قفزت من مجلسها كالمسحورة، توليها ظهرها وهى تعيد الصحن موضعه غير عابئة بتوسلات الأخري من خلفها:

- أمي لا تفعلى ذلك رجاءً، لن أتحمل أنتِ تعرفين هذا جيدًا، أرجوكِ أمي أمهليني فرصة ثانية، الشلالات لا تبعد عنا كثيرًا لقد كُنتُ قريبة من المنزل ولكن لا أعرف ما أصابها

التفتت لها والدتها ثانية، لتقول بنبرة حاسمة وهى تواجه عيناها قبل أن توليها ظهرها مرة أخرى:

- لقد استنزفتِ كل الفرص

- أنتِ تعرفين أن شغف المحاربة ينمو بداخلي كل ربيع من عمري

سمّرتها جملتها الهجومية موضعها، تخشي سماع تلك الكلمة بالأخص - محاربة- ، شعرت بصقيع يخترق جوارحها فارتعش جسدها بخوف، زاغت عيناها بينما كانت الذكريات تتوالى على ذهنها دون رحمة، كبحت دمعة حنين كادت تتسرب من عيناها لتلتفت لها قائلة باقتضاب صارم:

- ولأجل معرفتي بهذا أمنعك من الخروج، بدلًا من استلام جثمانك

واجهتها "عَنُود" بقوة:

- أفضّل الموت على العيش في جحر مثلك كالجرذان الجبانة المرتعشة

هوت يدها لتستقر فوق وجنتها الناضجة قائلة بزعق:

- أصمتى أيتها الوقحة

وضعت "عَنُود" يدها محل الضربة في صدمة. بدأ الدمع يسيل من عينيها سيلًا لتسمع والدتها تتابع بصدمة:

- تفسرين خوفي عليكِ بالجُبن، هذا هو جزائي؟! .. لتستطرد قائلة بقهر أمام عينان الأخري اللامعتان بالدموع:

- عندما تصبحين أم ستعرفين الفرق بين الجُبن والخوف، ستتعلمين التضحية بكل ما هو يسعدك من أجلهم

صمتت قليلًا تبتلع تلك الغصة التي داهمتها لتتابع بصوت متحشرج:

- لم أكن يومًا أخشى شئ بل كنت محاربة كما تريدين أن تكوني أنتِ، ولكن المساومة بالأحباب تلغي كل الأحلام فدائمًا العائلة تأتي في المقدمة أيتها المحاربة الصغيرة

عمّ الصمت المكان فبسق حفيف الأشجار من حولهم مع سكون الليل وخلاء مساحة المنزل إلا من صهيل "دهب" الخافت..

- أعتذر عما تفوهت به من حماقات

قطعت "عَنُود" الصمت بقولها النادم فردت الأخرى بخوف أمومي وهى تمسك بكلتا يديها:

- إذن، عاهديني أنكِ لن تتركين أرض ذلك المنزل إلا برفقتي

خيم الصمت من جديد، لم تتوقع ذلك البتة، كانت ستقنعها بطريقةٍ ما. طبيعتها ترفض ذلك فالعَنُود لا يسمع لأحد إلا قلبه، شعرت وكأنها تختار بين دخولها الجنة وحيدة أم جهنم مع عائلتها..

- أعدك أمي، لن أترك أرض منزلنا إلا برفقتك

قالتها بخفوت وهى تنظر أرضًا بينما قلبها يدق بعنف وكأنه يعاقبها على قرارها، فأمها هى قلبها أيضًا ويجب أن تستمع إليها دون مناقشة منها. ولكن هل يستمر انصياعها أم ستتمرد كطبيعتها؟

***

(٤)

تقف بشموخ ورأس مرفوع في شرفة القصر المطلة على البلدة التي تقع تحت إمرة زوجها، أبصرت عيناها الحديقة الشاسعة التي تصل لِما قبل البوابة الحديدية بقليل ويشقها لنصفين مسار للمشي بدايةً من باب القصر الخشبي الكبير إلى البوابة الخارجية خاصته. رغم جمودها وثباتها أمام زوجها ورعيته إلا أن هناك نظرة حزن تشوب عيناها.. أو ربما قلق من القادم. كل نهار تتجدد فيه أنفاسها وتتملص من بين أيدي عذرائيل يزداد خوفها أكثر، تعلم أن يوم الاقتصاص آتي

لا محالة مهما تأخر، وتبقى أمنيتها الوحيدة هي خروج روحها من جسدها قبل هذا اليوم.

تنهدت بهدوء تُخرِج بعضًا مما يجيش في صدرها لتسمع صوت طرقات على باب غرفتها فرددت بثبات:

- أدخل

طلّت من الباب فتاة عشرينية خاضعة الرأس، ترتدي ملابس باللون الأبيض كسائر العمال في القصر. اقتربت من السيدة التي تواليها ظهرها ثم قالت:

- صَيدَن يريدك سيدتي في غرفة الطعام

مالت برأسها لليمين قليلًا ثم قالت بنظرة جانبية مع نبرة ثابتة:

- أخبريه أنني آتية في الحال

هزت الفتاة رأسها في صمت ثم خرجت حيث أتت بينما السيدة في منتصف الأربعينيات شرعت في تبديل هندامها الذهبي بأخر بورغندي يليق بها كملكة "ديلماف."

فور خروجها من غرفتها لحقت بها إثنتين من العاملات كخيالها برأس خاضع وأيدٍ مشبكة ببعضها البعض للخلف؛ تلقّت التحية من كل مَن مرّت عليهم من عمال وعاملات بالقصر احترامًا لها ولمكانتها فردّتها بإيماءة من رأسها مع ابتسامة بسيطة تزين ثغرها الوردي.

دلفت أخيرًا غرفة الطعام القابعة في الطابق السفلي للقصر المكونة من طاولة خشبية بيضاوية كبيرة تبتلع معظم مساحة الغرفة ملتف حولها أربعة عشر كرسي خشبي باللون البُني المُطعّم بالذهب الخالص، تطُل عليها من السقف المصمم ببراعة ثُريّا طويلة تتدلى منها قطع الكريستال الأخاذة. أبصرت زوجها يترأس الطاولة التي تحمل ما لذّ وطاب من الأطعمة. كان يعطيها ظهره حينها، جالسًا وحيدًا دون أحد من أفراد العائلة فأيقنت أن هناك خطبٌ ما.

تنحنحت متسائلة قبل أن تجلس بجانبه:

- ما سر استدعائك لي في غرفة الطعام بمفردي؟!

لم ينظر للخلف حيث تجاهها، قال بثبات وثقة وما زالت عيناه مثبتة على نقطةٍ ما في الفراغ:

- اجلسي يا "ميسم"، فأنا زوجك لن أؤذيكِ

يا ليتها تخبره أنها لا تخشى أحد مثلما تخشاه، لو جلست على ذات الطاولة برفقة ذئب لن تكون خائفة كما هي الآن. ابتلعت ريقها بتوتر ثم تقدمت عدة خطوات إلى أن جلست على الكرسي المجاور له بقلب يدق بعنف، لم ترفع عيناها تجاهه ظلت خاضعة الرأس كسائر العمال عندما يحدثونها فوضع هو يده أسفل ذقنها رافعًا وجهها الأفقع

الصافي الخالي من الزينة تمامًا، ثم ردد بهدوء أخافها وهو يتأمل عيناها الرمادية الذابلة من كثرة بكاءها كل ليلة:

- لِمَ تخفين ذلك الجمال عني !! ألستُ زوجك أنا؟؟

- لم أفعل، صَيدَن

نطقتها بصعوبة بالغة فهي تخشى كل شئ في وجوده، الإنكسار والخضوع يتلكآن على صفحة وجهها الشاحب بفعل سنواتها العجاف داخل ذاك القصر الذي يظنه الجميع جنة.. في حين هي تراه جهنم الله على الأرض.

ردد بابتسامة غامضة وهو ما زال يتأمل قسماتها بإنبهار:

- لا أحب الألقاب بيننا يا "ميسم"، بالنسبة لكِ أنا "بكري" فقط دون إضافات .. ثم أكمل وهو يقترب بوجهه منها قائلًا بوقاحة جعلت أطرافها ترتعد:

- وهذا ليس من أجلك أنتِ، بل من أجل جمالك الذي أعشقه

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه تكبح دموعها من الهطول أمامه لتسمعه يضيف ببرود تام وهو يهم بتناول الوليمة أمامه:

- لقد تقدّم "سُليمان" لطلب يد "أفنان" إبنتنا وأنا وافقت

جحظت عيناها بصدمة لتهتف باعتراض:

- ماذا!!

تلبسه قناع الجمود القاسي وهو يقول بنبرة جافة أجفلتها رامقًا إياها بحدة:

- أرى أن هناك اعتراضًا يلوح في الأفق

تلبسها هي قناع الأمومة الرحيم لتقول باندفاع:

- نعم أعترض وبشدة، ابنتنا لم تتم العشرين بَعد ما زال هناك شهران وأنت تريد تزويجها من شاب يكبرها بثماني سنوات!!

ضرب الطاولة بقبضته بقوة هزت أركانها مما جعل الجميع من حولهم ينتبهوا للحديث، ثم قال بخشونة:

- لا أرى أن هناك داعي لهذا القلق، فأنتِ كُنتِ في السابعة عشر عندما تزوجتك بينما أنا كُنت أكبر منكِ بإثنى عشر عامًا وعائلتك لم تعترض حينها بل بالعكس رحبوا بالفكرة ترحيبًا حارّا

تود أن تخبره باعتراضها حينها وبكاءها ليلة الإتفاق بكاءًا مريرًا تسبب في آلام حنجرتها لأيام، تود أن تخبره عن الخطأ الفادح الذي ارتكبته عائلتها الفقيرة حينها.. عائلتها التي استغنت عنها مقابل الأموال والهدايا. سلبوها طفولتها، مستقبلها التعليمي، وحُب مراهقتها أيضًا الذي كان سيضحى زواجًا عند الصبا لولا أنانيتهما. لا تريد هي ارتكاب الخطأ ذاته.. الخطأ الذي جعلها تقع بين أيديه فاقدة برائتها، متكبّدة

عناء المسؤولية بدلًا من اللعب مع أمثالها من الأطفال، ولكنها اكتفت بالصمت مبتلعة ما في جوفها من وَصَب.

أنهى الحوار باقتضاب وهو يَلوك الطعام في فمه:

- يبدو أنكِ رضختِ للأمر، حفل الخِطبة سيكون بعد يومان من الآن

نظرت له مشدوهة من السرعة في الترتيبات لتقول بتساؤل:

- هل "أفنان" موافقة على هذا الميعاد؟!

جاوبها باقتضاب:

- نعم

لم تجد ما تقول سوى الاعتراض فآثرت الصمت، تعلم هي جيدًا أنه لن يتنازل عما يريد وإن انشقت الأرض وابتلعتهم جميعًا، لذا لا داعي للمقاومة.. يجب أن ترسم ابتسامة زائفة فوق شفتيها ككل مرة تعبّر عن رضاها المجازيّ الغير واقعي الذي سيؤدي بحياتها لحافة من العراقيل يومًا ما.

***

(٥)

جالسًا وسط صحبته حول حطب تتآكله النيران بشراهة فوق أرض صلبة ذهبية مرتفعة قليلًا. مغلفين بالعتمة من كل حدبٍ وصوب، يطُل عليهم القمر باستحياء متواريًا خلف أغصان الشجر التى تتظاهر باللون الأسود ليلًا فيشكلا ثنائيًا أخاذًا، كئوس الخمر تستقر بين أصابعهم إلا هو يشاهد فقط، كلما فرغت كئوسهم ملئوها من جديد وكأنها حليب أبيض صافى لا مشروب مُسكِر يُذهِب العقل.

يتأملهم بضيق بعدما سرد عليهم ما واجهه صباحًا من صاحبة الأعين الساحرة، سخروا منه ككل مرة، حيث قال أحدهم من وسط ضحكاته:

(أسقطتك أرضًا بحركة واحدة منها أيها الجبان، كان من الوارد أن تتحرش بك جنسيًا أيضًا رغمًا عنك)

بينما سخر أخر بوقاحة تليق به:

(لقد قاربت على توسلها لتركك حيًا يا أحمق، لو كنتُ مكانك لقبّلتها بقوة أذابتها بين يدي في غضون خمس ثوانى)

سخر أخير بطريقة أفحمته:

(وكنت تتسائل عن خوفك منها؟! أنت كالأرنب الوديع المرتعش بينما هى كالأسد الشرس أظن يوضّح المثال مَن سيخاف من الأخر).

ينتهوا من ضحكاتهم فيستعيدوها من جديد كأمر كئوس الخمر تمامًا، ندم أشد الندم على تسريب لسانه لذلك الأمر، أهانوا رجولته ووصفوه بالجبان الرِعديد لأنه خشى سيدة أضعف منه قوة، ابتسم بسخرية رافعًا زاوية فمه قائلًا في نفسه: (هذه ليست المرة الأولى التى تتلقى فيها سخريتهم بصمت، ربما المليون وألف يا "عزّ الدين" فلِما الحمية هذه المرة إذن؟!).

قال أحد الجالسين معه بلسان ثقيل من كثرة شرب الخمر:

- كـ..كـ..كان عليكَ يا "عزّ الدين" أن تأتـ..ى لنا بتلك الجميلة الليلة

رمقه "عزّ الدين" بضيق قائلًا بحدة:

- ليست عاهرة كالقابعات فى خيالك أيها الأحمق، تبدو محاربة

علّق أخر ولكن برزانة عن الأخر حيث لم يؤثر به الخمر كُليًا:

- المحاربات أكثر إثارة من غيرهن يا "عزّ الدين" صدقنى

حدجه "عزّ الدين" بنظرة مشمئزة ثم نهض من مجلسه قائلًا باقتضاب:

- لا أحب الحديث عن النساء خاصةً ذوات الأخلاق الرفيعة مثلها، سأرحل

هتف أحدهم بسخرية وهو يشير إليه بسبابة متزعزع لعدم توازن جسده:

- يبدو أن أميرنا قد وقع فى الحب من النظرة الأولى ويغار عليها

نظر لهم بتقزز وهم يهزقون على كلمات الأخير، ثم تركهم ممتطيًا حصانه بينما كانت ضحكاتهم تلحقه فى طيات الخواء المظلم.

***

(٦)

قبيل الفجر بقليل؛ وسط الغابة بين الشجيرات المتشابكة ببعضها البعض حيث الظلام الدامس والسكون التام إلا من أزيز الحشرات، أبصر ستيني كهل بهيئة مريبة وملابس مزرية من بعيد جسد مستلقي فوق الأرض الصلبة بثبات عميق. تردد في البداية من القرب منه ولكن القلق سكن قلبه لعلّه يحتاج مساعدته بعد مهاجمة أحد الذئاب له فحسم أمره وبدأ في التقدم تجاهه.

أخذ الكلب الذي يجاوره ويحميه من ذئاب الغابة الواقعة بقرب القصر الملكي في شم ملابس الجسد السوداء المستلقي على بطنه يكتشف سرها نظرًا لغريزته بينما جحظت عينا العجوز عندما لمح الخط الذي تتدفق منه الدماء بصعوبة نظرًا لضعف بصيرته،

www.secretsofstories.com

الفاصل بين الرقبة والجسد. اتخذ الخوف من قلبه مستقرًا ومقامًا فبدأ في الصراخ ومناداة حراس القصر سود الهيئة كي يكتشفوا ما أصاب أحدهم من نَكبة:

- قتيل، قتيل يا حراس القصر قتيل

تجمّع الحراس سود الهيئة في لحظات عندما سمعوا نداءه حول الجثة الهامدة لتتلكأ الصدمة على صفحة وجوههم، ومع بزوغ نور الفجر وضحت ملامح القتيل الذي كان من ساعات فقط يأمر وينهي، حيث ردد أحدهم بفم فاغر:

- "جاد!! "

****

انتشر الخبر بسرعة البرق في القصر فهلع كل مَن فيه بل انتشر في البلدة كلها، فالقتيل لم يكن سوى أقوى حارس للقصر ويعدّ قائد الحراس أيضًا بالإضافة لاعتماد صَيدَن "بكري" عليه في كل أموره بعد انسحاب "أنصاري". أمَر إبن الملك "أرقم" بعدما وصل الغابة القريبة من القصر بالتحفظ على العجوز الذي اكتشف الجثة لحين إشعار أخر:

- تحفظّوا عليه، لا تتركوه لحين سماع أوامر "بكري" صَيدَن

هلع العجوز وبدأ في التملص بين قبضتي الحارسين مرددًا بنزق:

- اتركوني، لم أفعل شيئًا

يا ليته يعلم أن هؤلاء لا يتحفظون إلا على الأبرياء، ندم ندمًا شديدًا على جهر لسانه للخبر ولكن بعد فوات الأوان فقد تم وضعه في قائمة المشتبه بهم وما هو إلا شاهد عيان.

ظلّ "أرقم" يحوم حول الجثة مراقبًا إياها بوجوم وحاجبين مقطبين متجاهلًا توسلات العجوز خلفه إلى أن أبصر جروح طولية غائرة تظهر أطرافها على حافة جانب رقبة القتيل، فأمر الحارس بقلب الجثة على ظهرها كي يستطع رؤيتها جيدًا فكانت الطامة الكبرى. تمعن "أرقم" في الجروح وهو يقترب برأسه ببطء فأبصر أن الجروح لم تكن سوى حرفين؛ بدأ يتهجى الحرفين الداميين ببطء وعقله لا يستطع فهم اللغز:

- "أ.ح"

الفصل الثاني

(١)

الهلع تملّك "ديلماف" برمتها وخاصةً سكان القصر الملكي، لأول مرة منذُ سنين يتم الاعتداء بالقتل على أحد حراس القصر بهذه الشجاعة.. وليس أي حارس بل قائدهم!!

عندما علم "بكري" بالأمر شعر بالغضب الشديد فمَن الذي تجرأ على دخول قصره وقتل أحد حراسه؟! شهر بالإهانة أيضًا لكونه لم يستطع السيطرة الكاملة على رعيته كي لا يقدم أحد على فعل كهذا.

استدعى العجوز الذي اكتشف الجثة بعد ساعات من احتجازه، فوصل لقاعة القصر الرئيسية الفسيحة ذات الأرض المصقولة اللامعة التي تلطخت بأثار قدمه المكسوة بالطين بدلًا من الحذاء. ارتعش جسد العجوز خوفًا عندما لمح توتر "بكري" الذي جال القاعة ذهابًا وإيابًا بتردد..

- ها هو العجوز الذي اكتشف جثة "جاد"، "بكري" صَيدَن كما أمرت نطقها الحارس بصمود وملامح جامدة فالتفت له "بكري" يتأمل هيئة العجوز بتمعن غامض ثم أشار للحارس بكفه كي يرحل.

اقترب من العجوز ببطء ثم ردد بتساؤل مشبكًا يديه خلف ظهره:

- ماذا أطلقت عليك أمك يوم ولادتك أيها الكهل؟!

ردد العجوز ذو الوجه المغطى بالتجاعيد بتعثر:

- "جـ..جـ..جميل"

أطلق "بكري" ضحكة عالية تردد صداها بين جدران القاعة الفسيحة ليقول باستهزاء:

- أكانت أمك عمياء؟!

نظر له العجوز بعيناه الذابلتان والمحفورتان للداخل في صمت.. لم يشاركه ضحكاته ولم يعترض أيضًا مما جعل الأخر يستعيد وجهه المكفهر متسائلًا وقد تلبسته سرابيل الغضب:

- ماذا كنت تفعل في تلك الساعة حول قصري؟!

- كنتُ أبحث عن كنزي .. ثم استطرد متسائلًا بلهفة:

- . أين "حيدر"؟!

عقد "بكري" حاجبيه في دهشة ليتسائل في بلاهة:

- مَن هو "حيدر"، شريكك في الجريمة!!

جاوبه العجوز بتلقائية:

- بل شريكي في السكن

- أين تسكن، ما هو عنوانك؟!

- الغابة

كان العجوز يجاوبه بهدوء تام؛ لم يشعره لوهله أنه يكذب عليه فإجاباته كانت سريعة وخالية من التعثر.. وهذا تحديدًا ما أصابه بالغضب أكثر حيث ظهر ذلك في نبرته وهو يتحدث مع الحارس:

- أعيدوه للحبس واجلبوا شريكه في الحال، إسمه "حيدر"

لم يكد "بكري" يلتفت حتى سمع العجوز يقول بدهشة:

- "حيدر" هنا بالفعل، أنتم أخذتوه مني عند التحفظ علىّ

كاد "بكري" أن يصاب بنازلة من ذاك الكهل الذي يبدو عليه الخرف والجنون فهدر أمام وجهه بهياج عنيف وقد تمكنت منه شياطين الغضب بينما يمسك الحارس بإحدى ذراعىّ العجوز بقوة وتملك:

- أتضللني أيها العجوز عن الأدلة أم ماذا!!

ردد ببساطة وهو يرتعش خوفًا من نظراته الحادة:

- صدقني "بكري" صَيدَن، أخذوا "حيدر" مني بعدما تحفظوا علىّ، لا أضللك حاشا وكلّا

زفر بضيق ثم سأل الحارس بنفاذ صبر:

- كان معه أحد عندما تحفظتوا عليه أم لا؟!

جاوبه الحارس برأس خاضع:

- لم يكن معه سوى كلب شريد، "بكري" صَيدَن

كان "بكري" على وشك الفتك بالعجوز ولكن تصريحه السريع منعه:

- وهذا ما كنت أقوله منذُ زمن، "حيدر" الكلب هو شريكي في السكن

فغر فاه "بكري" وهو يتطلع للعجوز بأعين جاحظة، حيث أنه أهدر نصف ساعة في الحديث عن كلب وقد كان يظن أنه اقترب من قاتل قائد الحراس!!

- أعذرني على المقاطعة "بكري" صَيدَن، ولكن لا أرى فائدة من التحفظ على ذلك الكهل المجذوب

نظر الثلاثة لمصدر الصوت الذي كان يقف على أعتاب القاعة بفم مزين بابتسامة واثقة. ابتسم "بكري" قائلًا:

- تقدم يا "سُليمان" تقدم

دلف "سُليمان" القاعة برأس مرفوع، واضعًا يده اليمنى فوق خنجره المستقر حول خصره الضّامر ليقول بعدما وقف قبالة "بكري:"

- سمعت أن ذاك العجوز اكتشف جثة "جاد"

- هذا صحيح، لذا تحفظنا عليه

- ولكنني لا أراه مفيدًا لنا فهو مجرد رجل شريد ليس له مأوى، لم يجد من الناس مَن يصادقه فصادق كلبًا

نطقها "سُليمان" بسخرية فالتوى ثغر "بكري" بسخرية هو الأخر قبل أن يردد:

- معك حق، بالتأكيد هذا ليس هو القاتل

- ولكنه كان يحوم حول القصر ليلًا، لِما؟!

أجفلهم تساؤل "أرقم" الذي دلف للقاعة بوجه متجهم وهو ينظر لـ "سُليمان" نظرات تحدي فهو يمقته أكثر من أي شئ أخر بسبب مدح أبيه له دائمًا وثقته اللامتناهية فيه لدرجة أنه وافق على زواجه من شقيقته الصغرى "أفنان.."

- العجوز شريد في الغابة، من الطبيعي أن يتواجد فيها لأنها قريبة من القصر

ردد "بكري" بثبات فأضاف "سُليمان" بدهاء ميزه:

- وإن كان مذنبًا أيضًا لما استدعى الحرّاس، كان هرب بعد فعلته الدنيئة

هزّ "بكري" رأسه في صمت مؤيدًا حديثه في حين "أرقم" توعّد لـ "سُليمان" بحفرة من نار يوئده فيها كي يبيده من القصر نهائيًا ومن حياة أبيه الذي يفضّله دائمًا عنه.

ردد "بكري" بنبرة جافة ثابتة:

- أخلوا سبيله هو والكلب

أومأ الحارس في إيجاب وهو يسحب العجوز معه لخارج القاعة بينما تبادل "سليمان" والعجوز الذي التفت برأسه ناحيته أثناء سيره للخارج نظرات خالية من التعبيرات ولكن مليئة بالتساؤلات.

***

(٢)

منذُ معرفتها بخبر مقتل قائد الحرّاس وهي لم تترك غرفتها، جاء اليوم الموعود الذي كانت تخشاه وتريد فرار روحها من جسدها قبل مجيئه. تعرف جيدًا أن مقتل هذا الحارس لم يكن سوى بداية الثأر فقط، خاصةً بعد الأحرف التي وجدت على رقبة القتيل. ارتعش جسدها لمجرد تخيلها بأن يطال القصاص أولادها.. لن تتحمل فراقهم وإن كانوا جزءًا من هذا الظلم. تعرف هي أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ولكن ما بيدها حيلة.. لا تقدر على الوقوف أمام الإعصار وحدها تحتاج لعضُد يشدد أزرها.

لم يكن أمر مقتل الحرّاس فقط ما يشغل بالها، فزواج إبنتها من رجل ظالم طاغي يشبه زوجها سرق النوم من جفنيها.. فـ"سُليمان" يد زوجها اليُمنى؛ لطالما تمنت لها زوج تقي، حنون، رحيم يحتويها ويعينها على المُحصنات لا الموبقات.. فهي لا تريد لها العناء ذاته .

سمعت صرير باب غرفتها فالتفتت برأسها طاردة أفكارها لبعض الوقت، لتجد "أفنان" إبنتها الصغرى تقول بريبة:

- ماذا بكِ أمي، لم تخرجين من غرفتك اليوم البتة؟! أنتِ مريضة!!

اغتصبت ابتسامة وهي تقول بتلعثم:

- لالا إبنتي أنا بخير .. ثم استطردت قائلة وهي تشير لطرف الفراش الوثير المغطى بقماش الساتان الذهبي بجانبها:

- تقدمي واجلسي بجانبي

اتسعت ابتسامة "أفنان" فزادتها جمالًا فوق جمالها. جلست بجانب والدتها ثم تسائلت بريبة:

- هل وافقتِ بالفعل بإرادتك على خطبتك من "سُليمان" كما أخبرني أبيكِ؟!

عقدت "أفنان" حاجبيها في دهشة ثم قالت وهي تُبعد خصلة بنية متمردة عن عيناها:

- نعم يا أمي، ما الغريب في ذلك؟!

- ألا ترين أن ذلك مبكرًا، أنتِ ما زلتِ على حافة العشرينيات إبنتي!!

ابتسمت "أفنان" ثم وضعت رأسها فوق كتف والدتها قائلة بدلال:

- الحُب لا يعرف ميعاد يا أمي

كادت تسألها أين حدث ذلك ومتى؟! ما الشئ الذي أعجبك في ذلك البغيض أو ما هو الشئ الذي جذبك له فأطلقتِ عليه "الحُب"؟! ولكن قاطعتها كلماتها التي أدهشتها :

- ثم لأول مرة أعرف أنكِ أنانية يا كنداكة "ميسم" .. أضافت "أفنان" بخبث وهي ما زالت معلّقة بذراع والدتها مستندة على كتفها برأسها:

- فأنت أيضًا قد أحببتِ شخصًا في نفس عمري تقريبًا، فلِما هذه التفرقة إذن؟!

جحظت عينا "ميسم" وشعرت لوهلة أن الهواء قد خلى من الغرفة، شعرت بخنجر استقر في منتصف صدرها يعاقبها على الاستسلام وعدم المحاربة، كادت أنفاسها تتوقف حيثُ توالت الذكريات على ذهنها دون رحمة؛ ذكريات حبها في المراهقة.. حبها لإبن حيّها فقير المال رغيد الفضائل. وفي لحظة الحنين للماضي تلك نهش سؤال ذهنها بقسوة.. من أين علمت "أفنان" بالأمر؟!

كنداكة: هو إسم يُطلق على الملكات بشكل عام أو الملكات الحاكمات بشكل خاص وهو يعني الزوجة الملكية الأولى أو الملكة العظيمة.

- من أين عرفتِ بالأمر يا "أفنان"؟!

تسائلت "ميسم" بخوف وقد ظهر الشحوب على وجهها الأفقع. جاوبتها "أفنان" ببساطة وهي تتأمل وجهها:

- من أبي

كلمتان بسيطتان جعلتا الدنيا من حولها تدور بها، "بكري" يخبر أطفالها بذلك دون خجل!! يا له من محتال يريد تصغير صورتها أمامهما بطريقة متوارية!!

- فيما شردتِ يا أمي؟! أحزنتِ لأن أبي أخبرني عن أسراركما الخاصة؟!

عقدت حاجبيها في عدم فهم قائلة:

- أسرارنا!!

- نعم فأبي أخبرني عن قصة حبكما الشاعريّة التي انتهت بالزواج وقد تحدثت عنها "ديلماف" برمتها لسنون عديدة

تقلصت ملامحها للضيق، من أين أتى بهذا الحديث ولِما كذب على إبنتهما بهذه الطريقة اللاأخلاقية؟

يدّعي حبهما بكل بساطة متناسيًا ذله وإهماله لها، متناسيًا أنانيته معها في علاقتهما الزوجية!!

ابتسمت كي لا تثير ريبة إبنتها ولم تعلّق، فمهما بلغ إنزعاجها منه وكرهها لتصرفاته لا يحق لها أن تزرع مقته في قلوب أطفالهما، فقط تسائلت:

- اتركينا من هذا، متى حدث الحُب بينكما أنتِ و"سُليمان"؟!

ابتسمت "أفنان" بخجل ثم قالت مطرقة الرأس:

- كان حُب من طرفي أنا فقط إلى أن فاجئني أبي بطلبه ليدي، أحب وقفته الثابتة بين رجال أبي، أحب ثقته بذاته.. فارس قوي هو يجيد ترويض جواده بمجهود لا يُذكر، أحب شهامته وحضوره القوي الذي يرهب من هبّ ودبّ، لأول مرة يا أمي أشعر أن هناك شخص مثل أبي أطمئن وأنا معه، فأنا أراقبه دومًا من شرفتي

عندما التقطت أذناها كلماتها عن "سُليمان" تجسدت في خيالها صورة إبن حيّها، يشبهه تمامًا وكأنهما شخصًا واحدًا.. لولا علمها بوفاته لكانت ظنت أنه هو وقد عاد بزمنه للوراء ليصير شابًا يفتن إبنتها فيعاقبها على جُبنها واستسلامها. ورغم أنها لم تجد خصلة واحدة جيدة في زوجها إلا أنها سعدت بمحبته الكبيرة لأطفالهما فهو على استعداد تام بوئد مَن يقترب منهما بسوء.

تنهدت "ميسم" ثم قالت:

- إذن ما موقفه من مراقبتك له؟

ظهر الإحباط على وجهها وهي تردد:

- يبادلني نظراتي الهائمة فيه بأخرى جامدة خالية من المشاعر، يصدني كلما توددت إليه بعبارات عادية كصباح الخير أو مساء الخير

اندهشت "ميسم" لقد ظنت أنه من الممكن أن يكون وقحًا كزوجها الذي يتودد لأي امرأة في حفلاته التي يقيمها بالقصر سواء في وجودها أو عدمه. أردفت "أفنان" بحيرة:

- وهذا ما جعلني أندهش من طلبه لي للزواج، ولكنني نفضت تلك الحيرة من تفكيري فيكفي أنني سأكون معه للأبد، لا تتخيلي يا أمي كم هي سعادتي الآن.. سعادتي تصل لعنان السماء أقسم لكِ

احتضنت "ميسم" وجهها بين كفيها ثم قالت:

- يديمها ربي عليكِ يا وردتي الصغيرة

- بما أنكِ ستصبحين زوجته، اجعليه يترك أمور القصر وشأنها لي فأنا الأحق بإصدار الأوامر من بعد أبي وليس هو

قاطع لحظاتهما الأمومية دخول "أرقم" الهجومي للغرفة فنظرا الإثنتان تجاهه بعدم فهم لتسأله "ميسم:"

- ما بك مندفع هكذا يا "أرقم"، ماذا حدث؟!

جاوبها وهو يشير بذراعه لشقيقته الصغرى:

- صهرك المستقبلي جعل أبي يطلق سراح العجوز الذي اكتشف جثة "جاد" في الغابة

هبّت "أفنان" من مجلسها قائلة ببعضِ ضيق من طريقته الفظة:

- وماذا في ذلك لا أفهم، إن أبي وافق ما شأنك أنت!!

ضحك "أرقم" ساخرًا ثم قال بتهكم:

- رائع جدًا، جميعكم تثورون في وجهي من أجل ذلك الزنيم مزري الهيئة وفقير المال!!

- "أرقم" تحدث برقي هذا سيصبح زوج شقيقتك، ثم الرجل ليس بماله ولا بملابسه، الرجل بأخلاقه كم مرة أخبرتك بذلك!!

عنفته "ميسم" بزعق بينما خرجت "أفنان" من الغرفة باكية لحديث أخيها عنه بهذه الطريقة المهينة له ولشخصها. قال بحزن:

- حتى أنتِ يا أمي تلومينني من أجله!!

اقتربت "ميسم" منه قائلة بهدوء وهي تمسك بيده مشفقة عليه:

- يا بني أنا ألومك من أجل تفكيرك العقيم هذا وليس من أجله، لا تتطبع بطبع الدنآء في مجتمعنا من أجلي يا "أرقم"، أريدك متواضعًا لا متعجرفًا يمقته الناس .. ثم أضافت:

- وصراحةً من البداية لم يروق لي قرارك بالتحفظ على العجوز، فكر قليلًا يا بنيّ كيف سيقوم عجوز هزيل الهيئة بذبح حارس عريض المنكبين لا يضاهيه في الطول حتى

زفر بضيق وقد لانت ملامحه بعض الشئ فابتسمت والدته قائلة:

- يبدو أن فارسي قد اقتنع بحديثي نوعًا ما

قبّل رأسها قائلًا باقتضاب:

- سأتناسى الأمر من أجلك فقط يا أمي

رحل من حيثُ أتى فظلت هي تراقب أثر رحيله بخوف؛ تخشى أن يسلك طريق أبيه، يظلم ويقهر ويقتل من أجل السلطة. تخشى أن تصيبه دعوة مظلوم يومًا ما فلا تُردّ إلا بأذى يكون له الناهية.

***

(٣)

بوجهان مستوران أسفل بُرقُع أسود لا يُظهر سوى عينان حادتان سوداوان يحيطهما من الأسفل خط أسود حالك.. دلفتا سوق "روماف" التجاري المقام في الهواء الطلق. يتجاور البائعون في السوق كالأسماك في وعاء للطعام، كلٌ منهم يعرض بضاعة مختلفة عن الأخر تجذب عددًا من سكان القرية، السوق محاطًا بأزقة يقطنها مجموعة من الحرفيين البارعين، مثل: الحدادين وعمال الجلود والنجارين. يقوم هؤلاء الحرفيون ببيع سلعهم من محالهم بشكلٍ مباشر.

أبصرتا أثناء تجولهما الملح، الخضروات، اللازورد، الأصباغ، الملابس، المعادن، الأواني، السلع السيراميكية، التماثيل، الرماح وغيرها من

www.secretsofstories.com

الأدوات الأخرى. وقفتا أمام بائعة خضرة اعتادت والدتها الشراء منها لأمانتها في الميزان ولأجل معاملتها الطيبة أيضًا.

تنحنحت والدتها من أسفل غطاء وجهها وهي تنتقي بعض الخضرة بينما هي ظلت تراقب فقط:

- كيف حالك يا "أم بديع"؟!

عرفت لقبها ذات مرة بعدما لاحظت البائعة أنها تتردد عليها كل يومين تقريبًا فأصبحتا صديقتان بعض الشئ. رفعت المرأة وجهها المغتم قائلة:

- الحمدلله في أحسن حال

لأول مرة تراها بوجه غير مبتسم فتسائلت بريبة:

- لا يبدو لي أنكِ بخير أبدًا .. ثم استطردت متسائلة وهي تتأمل المكان من حولهن:

- ثم أين زوجك وأين سمكاته الذي كان يجلس بها هنا بجانبك؟!

جاوبتها المرأة بصوت باكي:

- أخذوه أمس

انتبهت حينها "عَنُود" للحديث، تسائلت والدتها في عدم فهم:

- مَن تقصدين؟!

لم تلبث أن تنهي جملتها إلا وسمعوا وقع أقدام خيول تقترب، التفت ثلاثتهن في لحظة واحدة يتطلعن تجاه الجنود الأربعة الجالسين فوق خيولهم السوداء كقلوبهم تمامًا.. بل السوق كله. رغم غرابة هيئتهم فـ "روماف" خالية منهم تمامًا إلا أن سواد ملابسهم أفصح عنهم.. لم يكونوا سوى جنود "بكري". ساد الهدوء المكان حيثُ يترقب الجميع سقوط أحدهم بين أيديهم كما يحدث كل يوم، كل ساعة، وكل لحظة. ارتعشت أطراف والدة "عَنُود" فقبضت على كف إبنتها سريعًا بخوف أمومي لتطمئنها أو بالأحرى تطمئن حالها..

- ها هم أتوا من جديد ليلحقوا الأذى بأخر غير زوجي، عن هؤلاء الظلمة كنت أتحدث

سألت "عَنُود:"

- ماذا فعل زوجك ليأخذوه يا "أم بديع"؟!

جاوبتها بائعة الخضرة في شجن:

- اتهموه بقتل مائة شخص في القرية بأسماك سامّة باعها لهم، متجاهلين المجرم الحقيقي، الصيّاد الذي استغل ضعفه وطيبة قلبه

- لماذا يأتون إلى هنا تاركين "ديلماف"، أليس شيخ القرية هو مَن يتولى أمورها!!

تسائلت وهي تتأملهم بخوف، فجاوبها صوت رجولي أتى من خلفهما:

- لقد أبعد الوالي الشيخ عن الحكم منذُ أيام، فبالنسبة لهم الحاكم العادل ليس له سوى النفي لذا ها هم يعيثوا فسادًا من جديد

الفتتا تجاه مصدر الصوت فجحظت عينا "عَنُود" صدمةً من رؤيته في السوق بعدما أوقعها أمس، ورغم أنه كان يخفي ملامحه تحت لثام مثلها إلا أنها لم تنسَ عيونه الزيتونية .

اقترب من "أم بديع" التي رحبت به وسط نظرات "عَنُود" المغتاظة. بينما زاغت نظرات والدتها وكادت الأرض أن تميد بها، غيابها عن السوق أيام فاجئها بما لا يسرّ النفس. تجسدت في خيالها صورة قديمة تخشى تذكرها. شعرت والدة "عَنُود" بجموح المحاربة الذي سيطر على إبنتها حيث لمحت نظراتها الحادة تجاه الجنود، لولا وجود حشد كبير من الناس حولهن لكانت غرزت خنجرها الذي يلازمها دائمًا في قلوبهم الواحد إثر الأخر.

رددت "عَنُود" وهي ما زالت تنظر إليهم بغضب مكتوم:

- معك حق يا خالة، لقب ظلمة لا يضاهي ما يفعلوه حتى

حدجتها والدتها بنظرة حادة قبل أن تقول:

- أصمتى عن هذا الحديث، نحن أتينا لشراء الخضروات لا لإظهار وجهة نظرك أيتها المحاربة الصغيرة

زفرت بضيق فها هي تكبتها من جديد، لاحظ "عزّ الدين" توتر الأجواء بينهما فمنع "أم بديع" عن الحديث مع والدتها بشأنه. أما هي فكانت على وشك الرد على والدتها ولكنهم تفاجئوا بصوت صفعة هوت فوق صدغ أحد الجنود لحقتها صرخات أنثى تصدح في الأرجاء. تطلع السوق برمته تجاه مصدر الصوت فرأوا أحد الجنود يمسك بذراع إحدى فتيات سيدة تبتاع الملابس وسط توسلات والدتها له بتركها..

- اتركها يا بني، لن تفعلها مجددًا، أقسم لك

الحارس بوقاحة وهو ما زال يقبض على ذراع الفتاة بطريقة وحشية:

- أعجبتني جرائتها يا خالة ولا استرخص في ذاتي شيئًا صراحةً

تراقصت شياطين الغضب أمام حدقتاها، ظلت تتطلع لوجوه الرجال من حولها بصدمة وأعين دامعة وكأنها ترجو من نخوتهم بروجها، كيف يشاهدون هذا المشهد بصمت!! أين الرجولة التي تلتصق بها الشهامة كشقيقة توأم؟! أحقًا الخوف يلغي المروءة!!

هتفت باشمئزاز بعدما أعادت أنظارها تجاهه:

- يبدو أن روماف أصبحت خالية من الرجال

قالت المرأة بصوت باكي متوسلة إبنتها التي تتملص بين ذراع هذا الوقح:

- اعتذري منه، إبنتي؛ من أجل الله ثم من أجلي كي يتركك

هتفت الفتاة بإصرار وعناد جعل ابتسامة الفخر تزين ثغر "عَنُود" المكتنز والأدرينالين يرتفع بدمها:

- لن أعتذر يا أمي من ذلك الوقح، كَفّي بكاءًا وتوسلات فإبنتك المجني عليها وليس الجاني، هو مَن لمسني بوقاحة من فوق ملابسي ولست أنا مَن سنحت له بتلك الفرصة لذا يستحق تلك الصفعة

انتشلت "عَنُود" كفها من قبضة والدتها بقوة ثم تقدمت ببطء من الفتاة وذاك الجندي، شهقت والدتها بصدمة وقد تملكها الرعب، الآن ستخسرها هي الأخرى كما خسرت زوجها وولدها البكر من قبل. ظلّ "عزّ الدين" يدعو أن تمر الأمور على خير كي لا يضطر للتدخل.

- اتركها وإلا ستحل لعنة سيدك عليك، عندما أخبره كشاهدة على ما حدث بأنك قد تجرأت على لمس فتاة بوقاحة رغمًا عنها

نطقتها بتحذير قوي وثابت من أسفل لثام وجهها. تأمل الجندي لوهلة هيئتها الغريبة؛ ملابسها السوداء الفضفاضة المكونة من جلباب بسيط وعصابة رأس يتدلى منها وشاح ينزل على طول ظهرها يخفي مفاتنها أسفله، وخنجرها الفضي المستقر فوق خصرها كأقوى محارب بينما تصنع من طرف وشاحها الطويل العريض لثام يخفي ملامحها وصدرها. أكملت بتهديد:

- وأظن أنك تعلم جيدًا عقوبة أمثالك، لن تتحمل مئة جلدة

www.secretsofstories.com

حرر ذراع الفتاة في الحال عندما أدرك خطورة حديثها، يعلم هو بالمحظورات التي تسري على الجميع ولكن خُيّل له بأن الفتاة هينة لن تتجرأ على فضحه بهذا الشكل وسط السوق وقد حلّ تخيله محلّ السراب.

حمل جنوده ورحل بهدوء تاركًا الفتاة محلّها مغتاظ من تلك الفِرناسة التي وقفت في وجهه دون خوف أو تردد. اقتربت والدتها في ذات اللحظة منها وسط نظرات الجميع المنبهرة التي تعلقت بإبنتها وسؤال واحد يشغل ذهنهم.. مَن تلك الجسورة الحاملة صفات المروءة؟

قبضت والدتها على ذراعها قائلة بغضب:

- لنا مأوى نتحدث فيه، سيري معي في هدوء

وقفت أمامهما الفتاة التي قد تحرش بها الجندي منذُ قليل رادعة إياهم من التقدم خطوة لتقول بامتنان:

- شكرًا لكِ، لولا تدخلك الشجاع لِما كُنتُ هنا الآن

أرخت والدتها قبضتها على ذراعها في حين قالت هي بابتسامة فاخرة:

- شكرًا لكِ أنتِ على شجاعتك في ذلك الموقف، لو كانت فتاة غيرك لكانت صمتت خائفة من هؤلاء الوحوش ..

فِرناسة: شجاعة.

ثم استطردت تقول وهي تنظر تجاه والدتها التي هدأ نشيجها:

www.secretsofstories.com

- افتخري بإبنتك يا خالة، إبنتك ذات روح مغوارة على عكس الكثير هنا حولنا من الرجال

أنهت جملتها وهي ترمقه بنزق ناعتة إياه بالجبان سرًا ثم سارت بجانب والدتها وعلى محياها ابتسامة واسعة وسط رؤوس الرجال الخاضعة بوجه مخذول بعد جملتها الفاتكة لمروءتهم، لأول مرة تشعر بالنشوة وأنها ما زالت على قيد الحياة. متيقنة هي من أن والدتها لن تمر الأمر مرور الكرام، حتمًا ستعطيها محاضرة في الإنزواء وابتلاع كلمات الاعتراض والمقاومة حتى وإن طالنا الأذى كي نعيش في سلام. ولكن هل يوجد سلام في ظل القيود؟!

***

(٤)

حسمت أمرها، ستذهب إليه الآن وتتحدث بصيغة يتقبّلها.. صيغة خالية من الأوامر والعتاب. لن تقف كالصنم تشاهد اقتراب الفيضان الذي سيبتلعهم جميعًا في غمضة عين، بل ستحارب وتقاوم من أجل أطفالها فقط، لا تريد هي أن يطالهم التيار بسبب جشع سلطة أصاب والدهم في الماضي. تعلم هي أن جموح القصاص لن يتوقف عند ذلك

الحد بل سيتفشى رويدًا رويدًا مقتنصًا أرواح الرايات السوداء بحاميهم .

لم تشأ الحديث معه في غرفتهما عند صعوده إليها، يكفي ما شهدت عليه الغرفة سنين من شجارات وإهانات تنتهي بعَبَرات حارة ونفور قاسي.. لقد أصبحت غرفتهما كهف موحش تكره جدرانه وكل ما فيه بسبب الذكريات المحفورة داخله.

وقفت أمام باب غرفة تخصه يجتمع فيها مع أعوانه بقلب يدق بعنف، قبضت بأصابعها على "اليلك" الحريري ذو اللون الفيروزي التي كانت ترتديه فوق ثوبها الذهبي من الساتان.. وكأنها تستمد منه قوتها. اليلك الفيروزي مشقوق من الأمام حتى الذيل ومفتوح الجانبين، بكُمّان ضيقان ينتهيان عند المعصمين، وكانت تلف حول خصرها حزام من الحرير باللون الذهبي.

انتابتها ابتسامة ساخرة وهي تتذكر كيف طلبت إذنًا من الحرّاس قبل مقابلته.. هل يجب على الزوجة طلب إذن قبل مقابلة زوجها؟! ربما لأنها زوجة عاهل بلدة عريقة تحتاج لإذن قبل الحديث معه في حين هي متاحة له في كل وقت.. ما أقسى التنازل!!

طرقت على باب الغرفة مرتان بهدوء معاكس لثورانها الداخلي ثم دلفت بعدما سمعت كلمات تسمح لها بالدخول. أبصرته يجلس على

كرسيه الوثير المرصع بالذهب فاقتربت على مهلٍ وهي تنتقي من الكلمات ما لا يثير حنقه..

- أخبروني أنكِ تريدين التحدث معي في أمر مهم

قالها بثبات وهو يتأملها من رأسها لأخمص قدميها ببرود. ردت بخفوت:

- نعم، أريدك بخصوص آآ..

قاطعها بصرامة أجفلتها:

- قبل بدء الحديث يا "ميسم"، إن ستتحدثي في أمر خِطبة "أفنان" و"سُليمان" مرة أخرى أخرجي من الغرفة بهدوء فهذا الأمر منتهي بالنسبةِ لي

شعرت بألم يغزو صدرها، يتحدث معها وكأنها خادمته لا زوجته. اصطكت على أسنانها بقوة تكبح عَبَرات كادت أن تسيل ثم قالت بوهن:

- لا تقلق، أنا لا يهمني شئ سوى سعادة إبنتي وهي سعيدة، لذا لن أتدخل

تسائل بدهشة:

- إذن ما سر إصرارك على مقابلتي؟!

- سأذهب لبيت عائلتي في الحي القديم غدًا، كي أدعوهم لحفل خِطبة "أفنان"

www.secretsofstories.com

قالتها بأعين خاضعة وهي تقبض على ملابسها بقوة، ها هي تصمت مرة أخرى عن الحق.. ولكن هذه المرة ستطال عواقب صمتها الجميع وليس هي فقط.

ابتسم بسخرية مرددًا:

- هذا هو الشئ المهم؟! اذهبي كما شئتِ ولكن تريدين نصيحتي، لا أظن أن مجيئهما شئ مفيد وضروري

رفعت رأسها جاحظة العينين، بات يهين أفراد عائلتها أيضًا بطريقة متوارية. تعلم هي أنه يخذل منهما بسبب فقرهما الشديد فعِند ولادتها لأطفالها رفض حضورهما في حفل المولود متعللًا بعدد المدعوين. لم تنبس ببنت شفة فقط نظرت بصمت مُعبّأ بوصَبَ ثم خرجت من الغرفة دون أن تتحدث بما يجيش في صدرها فهو لم يترك لها أي مجال.

****

سارت لغرفتها بخطوات بطيئة تاركة العنان لماء عيناها المالح، تنهدت بمرارة وهي تغمض عيناها في شجن ماثلة أمام باب غرفتها الموصد بإحكام. باتت فكرة اقتلاع روحها بنفسها تراودها كثيرًا هذه الفترة بسبب معاملته الفظة لها، أشعرها اليوم بأنها ليست سوى جارية في قصره لا زوجة له وأم لأطفاله.

أدارت مقبض باب الغرفة المعدني كي تهرب من واقعها بالنوم لعلّها تهدأ قليلًا.. فليس من السهل على الزوجة تحمّل شعور اللامبالاة من زوجها.

دلفت الغرفة بجسد أنهكه الألم النفسي لا العضوي، فأبصرت مخطوطة ورقية تفترش أرضية شرفتها اللامعة. التقطتها بيدها في حيرة بالغة ثم شرعت في قرائتها بعدما جلست فوق فراشها.. ولكن مَن في القصر يراسلها بهذه الطريقة ولِما لم يأتِ إليها مباشرةً؟!. هذا ما كان يساورها طيلة الليل سارقًا منها النوم.

***

(٥)

(انتقم الله منك أنت ورب عملك، سيأتي يوم لن تترك فيه الفراش سيسكن المرض كل جسدك بفعل دعواتي عليك، تذكر دعوة المظلوم لا تُردّ)

كلمات بسيطة تحمل معنى وابِل نطقتها سيدة خمسينية ذات عزيمة يومًا ما منذُ خمس أعوام في وجهه دون خوف أو تراجع. نطقتها بعدما أمر جنوده بالإستيلاء على أرضها التي تُطعمها وشنق زوجها أمام عيناها في منتصف الطريق ليكون عِبرة لمن يعتبر، لمجرد أنهما لم يقدما

الإتاوة له طالبين إسبوعًا إضافيًا بعد شهر من السماح لتدبير المال.
كلما تذكر تلك الكلمات يزداد همًا وكمدًا، يتمنى رجوع الزمن لتلك اللحظة وقسمًا سيجبرها برأس خاضع خجلًا وأعين متغرغرة بالدمع ندمًا.

لم يمر سوى خمسة أشهر على تلك الدعوة التي لم يلقي لها بالًا إلا واتخذ من الفراش مجلسًا ومَرقدًا، لا يفارقه إلا حين دلوفه الحمّام وبرفقة زوجته أيضًا حيثُ قام الأطباء في البلدة ببتر ساقيه لانتشار القرح الناجمة عن مرض السُّكري فيهما.. وحينها خسر مكانته وعمله..

- "أنصاري"، هل أجلب لك الطعام؟!

نظر بعين ذابلة، مكسورة ووجه شاحب ضامر قائلًا لزوجته التي تقف بجانب فراشه:

- لا أريد

زفرت بضيق ثم قالت باعتراض:

- أنت لم تأكل شيئًا منذُ يومان، تعيش على الماء فقط وهذا ليس جيد بالنسبةِ لك

التوى ثغره ساخرًا وهو يقول مشيرًا على جسده النحيل:

- أعتقد أنه ليس هناك شيئًا سيئًا أكثر من ذلك

آلمها قلبها لحالته اليائسة، تدعو ربها سرًا أن يسامحه على ما يقول من اعتراضات على قضاءه وقدره. تعذره هي فزوجها كان رجل قوي ذو بنية مفتولة يهابه الجميع وله مكانة في البلدة أما الآن فبات طريح الفراش، هزيل الهيئة، خائر البنية، فاقد المكانة.. لقد فقد كل شئ في لمحة بصر.

تسائل ببعضِ أمل:

- ألم يأتِ أحد من القصر؟!

هذا السؤال الوحيد الذي لا تقدر على مواجهته، زاغت عيناها في الغرفة من حولهما ثم حسمت أمرها أخيرًا قائلة بخفوت حيثُ لا مفر:

- لم يأتِ أحد

منذُ فقدانه كل ما يملك يسأل هذا السؤال يوميًا دون كلل وملل لعلّ زيارة واحدة من أحد أصدقائه تجعله يسترد بعضًا من صحته، ولكن للأسف كل مرة تفاجئه زوجته بالنفي..

- أرأيت!! مَن أفنيت شبابك لخدمته لم يتقدم لزيارتك ولو لمرة واحدة

قالتها بمرارة فرغم صعوبة الموقف لم تقدر على كتمان غضبها من ذاك الذئب أكثر. ردّ بحزن:

- يكفي المال والحبوب التي يرسلها لنا مع أحد حرّاسه كل شهر

رفعت زاوية فمها بسخرية متذكرة الشاب الذي أرسله الله لها من مكانٍ ما مجهول، كل شهر يطرق باب دارها تاركًا لها طعام شهر كامل بسبب عجز زوجها عن العمل. لا تعرف من أين عَلِم بأمرها ولا تعرف ملامحه حتى فهو عندما يأتي إليها يكون خافيًا ملامحه أسفل لثام أسود. كانت تود إخبار زوجها عنه لعلّه يعرفه ولكن ذاك الشاب جعلها تقسم بعدم الإفصاح عن وجوده لسبب لا يعلمه إلا الله.

انتعشت ذاكرتها بتلك المرة التي ذهبت فيها لقصر "بكري" راجية منه المساعدة فطردها شر طردة وكأنها كلبة شريدة أو متسولة لا زوجة لقائد حرّاسه الذي كان على وشك الفداء بروحه من أجله، رافضًا مساعدتها هي وزوجها بعد إصابته بالمرض أمام أعين الجميع.. رغمًا عنها قارن عقلها بين الشاب وبينه فرددت بامتنان بعيدًا عن زوجها:

- نفع الله بك يا ولدي وجعل الله ذلك في موازين حسناتك، أينما كُنت

***

(٦)

اجتمع ثلاثتهم فوق الأرضية يأكلون الطعام الذي يستقر أمامهم على الحصير. أعدت أمها فلافل طازجة، طبق بصارة شهية، عيش الشعير

ذو الكسرة الداكنة، ولم تنسَ وضع بعض الخضروات الورقية كالجرجير إلى جانب الطعام.

قالت "عَنُود" بابتسامة واسعة وهي تتأمل الطعام بعين لامعة:

- سلمت يداكِ يا أمي، رائحة الطعام تدغدغ جوارحي

رمقتها شرزًا بصمت فهي لم تنسَ بَعد ما فعلته في السوق صباحًا.

لاحظ الجد اضطراب الأمور بينهما فقال متنحنحًا وهو ينظر لزوجة ولده:

- الأمور بخير أليس كذلك، "هاجر!! "

كانت حينها تقسم الطعام بينهم وعند هذه الجملة وضعت طبق الفلافل بقوة فوق الأرض مما أصدر طنينًا مزعجًا، فقال الجد:

- إذن الأمور بخير

هدرت "هاجر" حينها بغيظ أجفلتهما:

- لا ليست بخير أبدًا يا أبي

شرعت "عَنُود" في تناول الطعام متجاهلة حديثهما فهي لن تعترف بخطأ لم ترتكبه، كان يجب عليها فعل هذا صباحًا وإلا لتكرر الأمر معها ومع غيرها فيما بَعد..

- شاهد يا أبي، تتناول الطعام بأريحية وكأنها لم تفعل شيئًا وتسألني إن كانت الأمور بخير

قالتها بغيظ وهي تشاهدها تدس الطعام في فمها بلامبالاة، فتسائل الجد:

- ماذا فعلت البنت يا "هاجر" يستدعي ذلك الغضب كله؟!

ردت بغضب دفين:

- المحاربة الصغيرة قامت بتلقين درس لأحد حرّاس القصر صباحًا يا أبي عندما تحرش بفتاة في السوق التجاري

ابتسم الجد ابتسامة واسعة ثم قال وهو ينظر لحفيدته بإنبهار:

- حقًا!! هذه هي حفيدتي المحاربة، سلم لسانك حبيبتي

بادلته "عَنُود" الإبتسامة ثم قبّلت كفه بحُب بينما جحظت عينا "هاجر" التي قالت بفم فاغر:

- ماذا!! أنا أسرد لك الأمر كي تساندني وتعاقبها وأنت تمدحها على ما فعلت وتشجعها على المزيد أيضًا!!

زفر الجد ثم قال:

- اهدأي يا "هاجر" الأمور لا تُحلّ بالعقاب صدقيني

- ماذا تريد مني أن أفعل، هل أنتظر أن يحرموني منها كما فعلوا مع "فياض" من قبل ومن بعده "أسد"، أنا لا أريد عيش مأساة جديدة يا أبي، لن أتحمل فاجعة أخرى

www.secretsofstories.com

قالتها بمرارة فلحقها البكاء، تركت "عَنُود" الطعام متذكرة أبيها وأخيها اللذان ذهبا فداءً لأرض "ديلماف" التي لفظتها هي وأمها كمكافأة نهاية الخدمة. ثم قالت بغضب عارم وهي تنظر لنقطةٍ ما أسفلها:

- الغضب ينمو بداخلي كل يوم، أتمنى معاقبة البلدة كلها على موت أبي وأخي، لم يتحدث أيًا منهم حينها رغم أن كل شئ كان أمام أعينهم، الحديث المعسول وخوفهم من ذاك الحقير أعماهم، والآن تريدينني أن أفعل نفس الشئ!! لا لن أكن بالشيطانة أبدًا يا أمي وأسكت عن الحق حتى وإن وضعوا السيف على عرقي النابض

رددت أمها بحزن:

- لا أريدك كالشيطانة، أريدك بعيدًا عن تلك الفوضى، صدقيني لن يتغير العالم بجموحك هذا، البلدة كلها خاضعة ذليلة إن تفوه أحدهم بالاعتراض سيبيدوه كما فعلوا مع أبيكِ وأخيكِ و"ليث" يا إبنتي، لذا لن يتحدث أحد سيفضّلوا العيش خُضع على الموت شر موتة

قالت "عَنُود" بإصرار صارم رافعة إحدى حاجبيها:

- وأنتِ مَن لقنتيني دروس عن الشجاعة وعدم خضوع الرأس إلا لله عزّ وجل، فكيف تريدين مني المشاهدة في صمت مطبق؟!

www.secretsofstories.com

- أمك على حق يا "عَنُود" اتركي أمر التغيير والانتقام جانبًا، أنتِ معارضة وحيدة أمام جيش من المؤيدين والمحارب الماهر ينتظر اللحظة الحاسمة للهجوم

قالها جدها برزانة، اقتنعت هي بحديثه بعض الشئ فكيف ستحارب وحدها لابد من عضُد يشدد أزرها ويرافقها!!

- ولكن هناك الكثير من المعارضين يا جدي، يريدون فرصة فقط

قالتها باقتضاب فابتسم جدها قائلًا:

- معك حق ولكن جلدة سوط واحدة تموت ألف فرصة وفرصة، ليس الجميع مثلك عزيزتي يسعون للقصاص حتى وإن سيفقدوا أرواحهم

ابتلعت ريقها ثم قالت بجمود وهي تنظر لوالدتها "هاجر:"

- تتذكرين يا أمي القصة التي كُنتِ تسردينها لي كل ليلة عند النوم وأنا صغيرة!!

أصابت "هاجر" بلاهة فأكملت "عَنُود: بتحدٍ:

- كُنتِ تحكين لي عن قصة عجوزًا ضعيفة لقيت أصنافًا من العذاب، لترجع عن دينها فصبرت ولم ترجع. طعنها أبوجهل بحربة في قلبها حتى ماتت.. سمية بنت خياط ﷺ، وأنا إن أعانني الله على محاربة هؤلاء لن أتراجع فإن قامت عجوز ضعيفة بالمقاومة ماذا علىّ أن أفعل كشابة في مقتبل العشرينيات؛ ضعيها في رأسك يا أمي أنا وعدتك بعدم

الخروج من أرض هذا المنزل إلا برفقتك ولكن إن أتتني الفرصة لن أتوانى لحظة عن القصاص

غلّف الصمت المكان، نظرات قلق وتحدي لاحت في الأفق قطعها طرقات على باب الدار. سارت "عَنُود" تجاه الباب تفتحه بعدما ثبتت وشاح على رأسها تخفيه، واضعة طرفه فوق منتصف وجهها..

- أنت!!

نطقتها مشدوهة بفم فاغر بعدما فتحت باب الدار على مصرعيه، فلم يكن الزائر سوى منقذها "أبو الدهاء."

***

(٧)

في جوف الليل مع سكون الألسُن ورقود الأجساد، وقف أمام البوابة الكبيرة التي تلحق الحديقة المشطورة لنصفين يفصلهما مسار للمشي. بين الحين والأخر يرفع رأسه بفضول مراقبًا أبعد نقطة للطريق بشوقٍ جارف، أمر الحرّاس المكلّفين بحراسة القصر من الخارج بالانسحاب هذه الليلة، فأصابتهم الحيرة.

أتت اللحظة المنتظرة، لمح في الخواء المظلم طيف خيل يقترب يسكن فوق ظهره فارس مغوار أو هكذا ينعته. ضيق عينيه قليلًا لتتضح له

ملامحه نظرًا لبُعد المسافة بينهما، ومع كل خطوة تقرّب ذاك الفارس من البوابة تتسع ابتسامته إلى أن أضحت تصل من الأذن لليمنى للأذن لليسرى .

نزل الفارس من فوق حصانه بمهارة فائقة، ثم هجم بالعناق عليه قائلًا:

- أوحشتني كثيرًا يا أبي

ربت "بكري" فوق كتفيه وعلى محياه ابتسامة فاخرة، بعدما ابتعدا عن بعضهما البعض مردداً:

- ديلماف ازدادت نورًا وبهجة بوجودك اليوم بعد غياب طويل عنها يا "أمير"

ابتسم "أمير" في غرور، ثم دلف مع والده للقصر بإباء واضعًا يده فوق مقبض سيفه المستقر داخل حزام ملتف حول خصره. جالَ رَدهة القصر بعيناه الحادة متسائلًا في دهشة ممزوجة ببعضِ غضب:

- أين زوجتك وإخوتي يا أبي، لِما لم يستقبلونني؟!

ابتسم "بكري" مردداً بتفهم:

- لم أخبرهم بمجيئك يا بنى، أردت أن يكون مفاجأة نخبرهم بها صباحًا على مائدة الطعام، لذا هم نيام الآن

هزّ "أمير" رأسه في صمت مصطنعًا الرضا بينما في داخله نيران مشتعلة غضبًا، لم يشأ إظهارها أمام أبيه كي لا يفقد ثقته وحبه. ليس غاضبًا لأنه يفتقد رؤيتهم منذُ زمنٍ طويل، فهو لا يمقت سواهم وبالأخص "ميسم" و"أرقم" فأحدهما سرق والده منه في الماضي والأخر يسرقه منه في الحاضر.

أوصله "بكري" لغرفته التي تجاور غرفة "أفنان" لأنه أمر الخدم بعدم الظهور الليلة بعد التاسعة مساءً، لذا كان عليه أن يهتم بشؤونه بنفسه. ودّعه تاركًا إياه بالغرفة يتأملها، فرآها لم تتغير كثيرًا عن آخر مرة كان هنا أي من خمسِ سنوات.

جلس على طرف الفراش الوثير ينظر للأرضية بغضب جَمّ وهو يتذكر يوم أتت "ميسم" كعروس لهذا القصر بعد وفاة والدته بشهر واحد فقط، الأمر الذي جعله يمقتها لدرجة أنه يتمنى حرقها بيديه حيّة..

ليلة الزفاف..

يختبئ خلف أحد أعمدة الطابق الأول الذي تقبع به غرفة والداه، أخرج نصف جسده ووجهه ليتمكن من مراقبة الزائرة الجديدة التي أخبروه أنها ستحلّ محلّ أمه فثار وهاج كالثور، لمحها أخيرًا تدلف من باب القصر الخشبي وهي تمسك بطرفي ثوبها الضخم متأملة القصر.

www.secretsofstories.com

بدت ضعيفة وصغيرة ليست كما تخيلها تشبه أمه في هيبتها.. فطولها كان مقاربًا لطوله إلى حد كبير.

لحق بها والده الذي تحدث معه أمس بشأنها مخبرًا إياه بأنها ستكون أمه الثانية من الآن وصاعدًا، وقفا قليلًا يتحدثان ولكن لم يسمع أيًا مما قالا فالمسافة بعيدة جدًا بينهم ولكن على حين غرة، رأى والده يحملها ويهمّ بالصعود بها إلى هُنا.. حيثُ غرفته التي كان يشاركها مع أمه. جنّ جنونه عندما رآه يفتح باب الغرفة ويدخل بها فأسرع لغرفته يبكي فراق أمه وأبيه معًا مضمرًا في نفسه كراهيتها.

الآن..

هبّ واقفًا من مجلسه وفي مقلتيه احمرار لدموعه المتحجرة بسبب تلك الذكرى البغيضة التي تأبى تركه.. الذكرى التي بَنَت داخله حاجز من الشَناءة تجاه "ميسم" وما يخصها لم ولن يُهدم بفعل الزمن. ورغم محبة والده التي لم تقل يومًا كما أوهم نفسه بأنها سرقت أبيه فبات يتيمًا، إلا أنه أقسم بعدما رآها تتخذ مكان والدته في كل شئ أن ينغص عليها عيشها هي ومَن أنجبت.

***

الشَنَاءة: الكراهية.

(٨)

ضائع هو فى غيابات الماضى لا يعلم كيف يتجاوزه وخيوطه تمسك بقدميه تود إقحامه فى الحكاية من جديد !! كلما حاول التأقلم تراوده كوابيس مفزعة وكأنها تحاول استرجاع ما فقده من ذكريات، لا يستطع العيش مع حياته الجديدة كُليًا أو الانخراط فيها بشكل سوي مما يؤثر على مَن حوله بالغُمّة .. نغصَ عيشهم. يمقت كونه حِمل ثقيل عليهم بماضيه الذى يلاحقه بإصرار رادعًا إياه من أن ينعم بحياة جديدة هنيئة. لو فقط يتذكّر سينعم بحياة هادئة خالية من سيف وخيل وسقوط بلا رجعة .. الصورة غير مكتملة هناك حلقة مفقودة. لو فقط يتذكّر سينعم بحياة خالية من ذلك الكابوس الذى لا يتركه وشأنه.

ها هو بحركات عين سريعة مُقحَم مرة أخرى فى غابة لا تسكنها سوى الذئاب، محاط برايات سوداء مشوشة غير واضحة، يقترب أحدها منه ثم السقوط بلا رجعة فى قعر الجُبّ..

- لا لا لا، ليس ثانية ليس ثانية

www.secretsofstories.com

تفوه بتلك الكلمات بأنفاس متلاحقة قبل أن ينهض بغتةً منتشلًا حاله من كابوسه المصاحب له، صدره يعلو ويهبط من فرط الخوف والقلق، حبات العرق تتجمع فوق جبينه القمحي بغزارة وكأنه كان فى سباق مع الزمن. شعرَ بيد حنونة ذات لمسات ناعمة تتلمس ظهره بتردد ممزوج ببعضِ خوف فالتفت برأسه ليجدها، شعاع الضوء الوحيد فى حياته المنغمسة بالكوابيس المظلمة. أطبق على كفها الأبيض الصغير بكفه الكبير الخشن يطمئنها رغم تيقنه التام من خوفها الدائم بسبب حالاته تلك التى تنتابه أثناء نومه، جذبها لأحضانه برقة بالغة تماثلها ثم شرع يُمسِّد ذراعها النحيل بلين لربما يبثها ببعضِ الأمان..

- ذلك الكابوس مرة أخرى؟!

تسائلت بخفوت وهى ما زالت مستقرة بين أحضانه تتشبث بملابسه بقوة، كان رأسها يستقر فوق صدره القوي فقال وهو ينظر لنقطةٍ ما فى الفراغ:

- نعم، ذاته

فرّت دمعة هاربة من عيناها البُنية اللامعة وكأن هناك طبقة من الزجاج تحيطها قهرًا على حياتها التي تشوبها الكوابيس والذكريات المفقودة، رددت بفم مرتعش:

- أعرف أنك تعاني يا "حَمَد" ولكن ما بيدنا حيلة، عليك أن تنسى ذلك الكابوس كي نستطع العيش في سلام كأي زوجين

لمس في كلماتها الرجاء والأمر معًا، ما ذنبها في ذاكرته اللعينة التي تأبى أن تعرض له سنوات حياته الفائتة؟!

زوجة تريد عيش حياة هانئة مع زوجها لا تطلب أكثر فلِما لا يستمع إليها؟ !

ردد باستسلام رغم عواصف الاعتراض التي تنشب داخله، يواجهها بعيناه السوداء القاتمة:

- معك حق يا "رُواء"، أعدك أنني سأضع ذلك الكابوس محلّ التجاهل لن أجعله يعكّر أيامنا أكثر من ذلك .. ثم استطرد قائلًا وهو يضع يده على بطنها المنتفخ قليلًا بينما تزين ثغره ابتسامة حالمة:

- وخاصةً أيامنا مع ولي العهد القادم

اتسعت ابتسامتها وتلاشى قلقها في تلك اللحظة لتضع كفها الصغير فوق كفه المستقر على أحشائها تربت عليه، بينما هو غاص في وعده الذي قطعه توًا، أسيقدر على تجاهل هويته وسنينه؟! هذا السؤال ما كان ينهشه طيلة ليلته فسرق النوم من جفنيه بثباتة.

الفصل الثالث

(١)

جحظت عيناها عندما رأته أمامها، عيناها لا تخطئ أبدًا هو نفسه ذلك الأحمق الذي أوقعها أرضًا بفكرته الحمقاء مثله، والذي قابلته أمس في السوق. كاد أن يتحدث إليها ليشرح وضعه ولكنها قاطعته سالبة منه الفرصة بصرامة:

- تجسست عليّ أيضًا وعرفت عنواني، يا لوقاحتك!!

فغر فاهه دهشةً من فظاظتها في الحديث، كاد أن يضرب برأسها عرض الحائط ولكنه استكان في اللحظة الأخيرة فهي أنثى في نهاية المطاف ولا يصح ذلك. كانت ستكمل سيل السباب خاصتها ولكنها سمعت والدتها تقول من الداخل:

- "عزّ الدين" هذا أنت!!

اندهشت من رد فعل والدتها فعقدت حاجبيها في بلاهة بينما اقتربت والدتها منهما لتقول بحبور وهي تُبعد جسدها عن مدخل الباب:

- تفضل يا "عزّ الدين"، كُنتُ أنتظرك منذُ الصباح يا بنيّ

ازدادت دهشتها عندما أبصرت الألفة بينهما، أغلقت الباب ثم لحقت بهما للداخل. رددت والدتها وهي تشير إليه:

- هذا "عزّ الدين" يا أبي، سيعمل معنا في أرضنا من الغد وسيستأجر الغرفة الخالية في الخارج ليسكن بها

- مَن هو لتساعديه بهذه الطريقة يا أمي؟!

التفت ثلاثتهم لها فقالت والدتها باقتضاب حيثُ أنها ما زالت غاضبة منها:

- "أم بديع" جاءت إلى هنا عصرًا حينما كُنتِ مع جدك في الأرض وطلبت مني مساعدته يا "عَنُود" وأنا وافقت، ما مشكلتك أنتِ؟!

لا ينكر أن إسمها آسر قلبه، يليق بها كثيرًا وبشخصيتها القوية الجامحة. ابتسم في جذل وهو ينظر أرضًا حيثُ انتعشت ذاكرته بما حدث صباح ذلك اليوم بينما هي أشاحت بوجهها بعيدًا عنه لتقول بامتعاض:

- وكأننا ينقصنا "أبو الدهاء" ذاك، أقسم أننا سنخسر قيمة محاصيلنا من تحت رأسه ومن ثم أرضنا الصغيرة

التفتت والدتها برأسها لتقول بتساؤل:

- بماذا كُنتِ تهمسين الآن، أخبريني أيتها المحاربة الصغيرة!!

ابتلعت ريقها ثم قالت بخوف من نوبة غضب ثانية:

- ولا شئ يا أمي، ولا شئ

وضع الجد يده فوق كتفه قائلًا بحسرة:

- لا تقلق يا بنيّ ستعتاد تلك الشجارات بينهنّ كل صباح، فماذا يجيد النساء سوى التحدث بعصبية طيلة اليوم!!

ضحك "عزّ الدين" فشاركه الجد الضحك، ثم تسائل:

- هل يتشاجرن هكذا كل صباح؟!

هزّ الجد رأسه في صمت بينما أسرعت والدتها تقول له بعدما لملمت أطباق الطعام:

- هيا بنا يا "عزّ الدين" سأريك غرفتك

ابتسم لها بود ثم سار معها باتجاه الغرفة التي سيقطن بها أيامه القادمة وسط نظرات "عَنُود" المنزعجة ونظراته العابثة، بينما تذكرت "هاجر" حديث "أم بديع" معها بأن ذلك الشاب يبحث عن عمل وهي لا تعرف سواها، وتريد هي مساعدته لأن زوجها أخبرها بمعاملة أخيه الطيبة له في السجن بعدما تحفظ عليه هؤلاء الطغاة.

***

(٢)

- المطر لم يطُلّ علينا هذا العام إلا مرتان فقط ومحاصيل السنة الفائتة على وشك الانتهاء، أصبحت الأرض جافة للغاية

نطقها أحد الفلاحين بنبرة عالية مغتمًا، واقفًا بمفرده وسط أرضه الزراعية التي لم تنتج محصولًا واحدًا بسبب نقص مياه الأمطار مما يؤثر على طعامه وشرابه، فهو لا يملك سوى تلك الأرض التي يبيع محاصيلها في السوق التجاري القابع بمنتصف مدينة "ديلماف.."

- لا يزور الخير الأرض التي تمتلكها قلوب آسنة يا ولدي

التفت الفلاح لمصدر الصوت فأبصره يقف على أعتاب أرضه الزراعية. ثم قال متفاجئًا:

- عم "جميل" أنتَ هُنا!! .. ثم هرع إلى الرجل الشريد الذي يصاحبه كلبًا، مُضيفًا وهو يمسك برسغه يعينه على السير:

- لا أستطيع معارضتك في حديثك يا عم "جميل"

آسنة: فاسدة.

أردف العجوز بجدية:

- هذه الأرض لن ترى الخير مرة أخرى يا ولدي، أنظر للأراضي الجافة من حولك، انتشرت الأوبئة والأمراض أيضًا، كثُرت الابتلاءات لعلّنا

نتعظ ونكُفّ عن قتل الأبرياء، سلب حقوق المظلومين والفقراء، السكوت عن الحق، ونصر الظالم رغم علمنا بظلمه قبل قيام الساعة ولكن سكان تلك الأرض في غفلة، لن ينصلح حال تلك الأرض إلا عندما نتقي الله فيما نفعل ونضعه نصب أعيننا

أضاف الفلاح:

- تريد الصراحة يا عم "جميل" لقد سعدت عند سماع خبر موت ذاك الشيطان "جاد"، أدعو كل ليلة أن كل فرد من القصر الملكي يلقى حتفه مثله .. ثم استطرد قائلًا بحزن وهو ينظر لوجه العجوز ضعيف البصيرة:

- هم مَن لوّثوا أرض هذه البلدة بدماء الأبرياء، كـ"أسد" و"ليث" وغيرهم

أطرق العجوز برأسه في حزن ثم قال:

- رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته

ربت الفلاح على كتف العجوز قائلًا بمواساة:

- ربط الله على قلبك يا عم "جميل"، فقدان الإبن ليس هيّن أبدًا، وأنت فقدت الإبن والأم في ليلة واحدة

همس العجوز بحزن:

- رحمك الله يا "ليث" أنت وأمك

تسائل الفلاح بفضول:

- صحيح يا عم "جميل"، ألا زلت لا تعرف مكان عائلة "أسد فياض!!"

هزّ العجوز رأسه قائلًا:

- كل ما أعرفه أن والدته أخذت شقيقته وهربا من هنا برفقة والد "فياض" بعد استشهاد "أسد" هو الأخر، خوفًا من بطش "بكري" ولكن لا أعرف إلى أين هربا، على علمك يا ولدي

غلفهما الصمت بضع لحظات ثم تسائل العجوز بحيرة:

- مَن في اعتقادك يقدر على قتل رجل مثل "جاد" يا ولدي؟

ردّ الفلاح:

- أظن أنه أحد من القصر يمقته، فلا أحد منّا يقدر على دخول القصر أو حتى محاولة استدراج أحد حرّاسه

- ولكن "جاد" قُتِل في الغابة أي أنه من الممكن أن يكون القاتل أحد منّا بالإضافة أنهم وجدوا حرفين داميين فوق رقبته (أ.ح)، فماذا يعنيان؟

على ذكر القصة ردد الفلاح:

- صحيح لقد سمعت أن حرّاس القصر تحفظّوا عليك أمس

- ما سمعته صحيح يا بنيّ، ولكنهم تركوني بعدما اتقفوا على أن لا فائدة من التحفظ على رجل كهل مثلي

www.secretsofstories.com

قالها العم "جميل" ساخرًا فتسائل الفلاح بعدما أجلسه أمامه وسط الأرض الزراعية خاصته:

- ولِما ذهبت هناك يا عم "جميل" ألا تعرف أن قلوبهم خالية من الرحمة !! لقد اتهموك بقتل "جاد" لمجرد اكتشافك الجثة رغم ضعف جسدك وبصيرتك

قال العم "جميل" بيأس بعدما أطلق تنهيدة ترح:

- كُنتُ أبحث عن كنزي يا ولدي

ضحك الفلاح ثم تسائل بدهشة:

- هل ما زلت تبحث عن ذلك الكنز يا عم "جميل"؟! مرّت عشرِ سنوات وانت تبحث عنه في أرجاء البلدة

ابتسم العجوز ابتسامة وهنة ثم ردد:

- هذا الكنز غالي علىّ كثيرًا يا ولدي، لقد أصابني المرض بعد فقدانه ولابد من إيجاده قبل فوات الأوان

قال الفلاح بعين لامعة بوميض الفضول:

- تعرف يا عم "جميل" أريد أن أرى كنزك ذاك الذي تتحدث وتبحث عنه طيلة الوقت، بالتأكيد عظيم وله قيمة كبيرة

ردد العجوز بخفوت وذهنه في مكانٍ ما:

- أكثر مما تخيل يا ولدي

www.secretsofstories.com

(٣)

اجتمع ثلاثتهم حول طاولة الطعام صباحًا لتناول الفطور معًا بأمر من "بكري" بعد غياب طويل عن هذه العادة، حيثُ أن "ميسم" كانت تدعو "أفنان" لتتناول الفطور معها كل صباح في شرفة غرفتها الفسيحة المُطلة على الحديقة كي لا يفقدوا الجو العائلي بالكامل، بسبب انشغال "بكري" و"أرقم" الدائم. اندهشت "ميسم" من هذا الإصرار؛ ظنت أنه قد علم بأمر الرسالة التي وصلتها وأخفتها عنهم، فابتلعت ريقها بصعوبة مترقبة هجومه في أية لحظة، محاولة إيجاد بعض الكلمات التي تنقذها من ذاك المأزق..

- بالطبع جميعكم تخمنون الآن سبب إصراري الشديد لتناول الفطور معًا اليوم، أليس كذلك؟!

قالها "بكري" بابتسامة عابثة وهو يستند بظهره على كرسيه الذي يترأس الطاولة في ثقة بالغة. ردّ "أرقم" باقتضاب:

- وبما أنكَ تعرف ذلك، أتمنى أن تخمد فضولنا يا أبي وتخبرنا سريعًا، فأنا لدىّ الكثير من الأعمال

ازداد شحوب وجهها وهي تسمع زوجها يقول بغموض جاف:

- حسنًا يا بنيّ، سأخبركم .. ثم استطرد قائلًا وهو ينظر للخلف تجاه باب غرفة الطعام المفتوح راسمًا على ثغره ابتسامة جذلة:

- "أمير" قد عاد فجرًا من روماف

انتقلت وجوه "أرقم" و"أفنان" لباب الغرفة التي ظهر على أعتابها أخيهم، وعلى محياهم ابتسامة واسعة في حين هي تنفست الصعداء واضعة يدها فوق صدرها الذي بات يعلو ويهبط من فرط التوتر والخوف. عانقاه بحبور تام فقد اشتاقا له كثيرًا، رددت "أفنان" وهي تتعلق بعنقه نظرًا لطوله الفاره بعدما ابتعد "أرقم":

- أوحشتني كثيرًا يا "أمير"، سعدت لاهتمامك بحضور حفل خطبتي

أمسك بوجنتها بين إبهامه وسبابته قائلًا:

- لا أستطيع تجاهل حفل خِطبة قطتي الصغيرة

ابتسمت "أفنان" بدلال فقال "أرقم" بمشاغبة وهو يشير لشقيقته:

- تسمي كل هذه الزرافة بالقطة الصغيرة، عجبًا لك يا أخي

ضحكوا جميعًا ما عدا هي اكتفت بالإبتسام فما زالت صدمة وجوده بينهم مرة أخرى تؤثر عليها بالوجوم التام. لكزته "أفنان" قائلة بتبرم:

- أصمت يا "أرقم"

- أوحشتني شجاراتكما أيضًا والله

قالها "أمير" بابتسامة واسعة فبادلاه إياها، وبعد انتهاء المزاح و كلمات الترحيب والشوق بين ثلاثتهم، نظر تجاه "ميسم" الواجمة ليس نفورًا من وجوده بل إحراجًا منه. فهي دون علمه تعاتب نفسها طيلة سنون زواجها بأنها السبب في موت أمه وسرقة أبيه منها بعد معرفة جشع والده الذي لم يعرفه هو بَعد..

- كيف حالك كنداكة "ميسم!!"

قالها باقتضاب وهو يدور حول الطاولة ليجلس بجانب أبيه أي مقابلها، ردت بخفوت مغتصبة ابتسامة وهي تتجنب النظر له:

- بخير، سلمت على سؤالك

قال "أمير" متلذذًا بتوترها في وجوده:

- أشعر أن رؤيتي هنا بينكم مرة أخرى لم تسعدك يا كنداكة

رفعت عيناها قائلة وهي تنظر إليه بجمود:

- بالعكس تمامًا، كل ما يسعد أطفالي يسعدني، ورؤيتك مصدر سعادتهم لذا أنا ايضًا سعيدة بوجودك وخاصةً في مناسبة كتلك

أحرجته، كان يود توجيه أصابع الاتهام لها رغم تيقنه الشديد من صفاء نيتها تجاهه، فنفضت عنها تلك الإدانة بكلمات عاطفية بسيطة كادت أن تلينه لولا شيطانه الكاسر المسيطر عليه. الجميع يعرف أنها تكبره بسبع سنوات فقط لذا لا يناديها سوى "كنداكة" لا أمي ولا

"ميسم".. يكره نعتها بلقب سامي مثل هذا لا تستحقه في نظره ويمقت لفظ حروف اسمها بلسانه. أما هي فشردت تتذكر أول مرة رأته فيها عند دخولها القصر بعد حفل زفافها مباشرةً..

قبل ثلاثة وعشرون عامًا..

وطأت قدماها القصر الملكي بتردد وخوف كبيرين، ثوب زفافها الضخم كان يعيق حركتها في السير فباتت تتعثر بين الخطوة والأخرى كالبلهاء. جالت بعيناها الرمادية تبحث عن والدتها فلم تجدها، بحثت عن "فياض" صديق عمرها ومحبوبها الذي يجلب لها الحلوى دائمًا فلم تجده أيضًا، انتابتها حالة بكاء فهي وسط غرباء لم ترهم من قبل ولكن يد ضخمة استقرت فوق كتفها أجفلتها. نظرت لعينيّ صاحب اليد من فوق كتفها بذعر جلي بينما أضحى جسدها يرتعش بخوف. أدارها لتقف قبالته تمامًا فأبصر وجهها الأفقع يستقر عليه خطان سوداوان نابعان من مآقيها حيثُ امتزجت دموعها مع كحل عيناها. ردد بدهشة:

- ماذا بكِ يا صغيرة، لِما تبكين ليلة زفافك؟!

ردت ببراءة طاغية سرقت قلبه الآن ولُبه سابقًا وهي ترفع رأسها عاليًا لطوله الفاره:

- أريد أمي

قبض على أعلى ذراعيها النحيلان برفق قائلًا بإعجاب شديد وهو يتأمل قسمات وجهها بوقاحة:

- ستأتي صباحًا لتطمئن عليكِ، الآن دعينا لا نفسد ليلتنا الأولى

مآقي: مَجَارى الدَّمع من العين.

لم تفهم كلمة مما قال، اختلط عليها الأمر، هذا الرجل رأته من قبل أمام بيت "فياض" كان يتحدث معه وحوله رجال آخرون يرتدون الأسود حاملين سيوفهم بعدما أنقذها من أمام عربة خيول كادت أن تصطدم بها، وعندما سألت "فياض" عن الأمر جاوبها:

(هذا صديقي يا "ميسم") ثم تجاهل الموضوع منتقلًا لأخر وهو يقول:

(دعينا من هذا الأمر، هذه الحلوى خاصتك جلبتها لكِ ككل مرة)، لِما هي الآن معه في منزل واحد؟ هل أصبح هذا منزلها كما أخبرها الناس صباحًا؟ لن ترى "فياض" مرة أخرى إذن.

سألته بصوت باكي:

- ألست أنت صديق "فياض" الذي ساعدني ذات مرة!!

امتعضت ملامحه ولكنه حاول الاسترخاء كي لا يصيب ذعر الصغيرة منذُ الليلة الأولى، فقال بابتسامة بسيطة:

- نعم أنا هو .. ثم استطرد قائلًا بفحيح أفعى:

- ولكن الآن أنا فقط صديقك، ليس لـ"فياض" مكان بيننا

تسابقت دموعها بالسقوط في حين تتوالى على ذهنها ذكريات لهوها مع "فياض" في حيّهم وإعلانه حبه لها ورغبته في الزواج منها عند الصبا، لوالدتها التي منعتها عن اللعب معه آخر مرة. أجفلها بحمله لها وسط أعين الخدم والعمال ليصعد بها السُلم الطويل الذي يؤدي لغرف عديدة، كانت تحلّق رقبته بذراعيها كي لا تسقط من بين يديه، فلمحت طفلًا يختبئ خلف أحد أعمدة الطابق الأول يراقبهما بوجه مغتم، لم تفهم سبب نظراته العدائية لها فظلت تتأمله بينما حاملها يبتعد بها رويدًا رويدًا.

الآن..

- صباح الخير، "بكري" صَيدَن

استفاقت من ذكرياتها على تلك الجملة فنظرت خلفها لتجد "سُليمان" يقف على أعتاب الغرفة بثبات. اتسعت ابتسامة "أفنان" عند رؤيته وشرعت تعدل من هندامها بتلقائية بينما ردّ "بكري" بابتسامة واسعة:

- أهلًا يا "سُليمان"، تفضل تفضل يا بنيّ، سأعرفك على شقيق "أفنان" الأخر

ابتسم "سُليمان" بحرج ثم اقترب من الطاولة ليقف في المنتصف بين "بكري" و"أمير"، أضاف "بكري" بفخر وهو يشير لولده:

- هذا إبني "أمير"، كان يقطن في روماف بسبب أعمالنا هناك

تبادلا نظرات ثابتة مقتضبة قبل أن يمد "سُليمان" يده ليصافحه قائلًا:

- تشرفت بمعرفتك، سيد "أمير"

نظر له "أمير" بغرور ثم هزّ رأسه في صمت دون أن يرد عليه، فطفقت "أفنان"تقول بابتسامة مشرقة وهي تشير للكرسي بجانبها:

- انضم إلينا يا "سُليمان"

رمقها "أرقم" شرزًا بينما هو اعتذر في هدوء متخذًا من الأرض موضع نظره:

- لقد سبقتكم، سأذهب الآن لأتفقد زيارات المسجونين

أومأ له "بكري" في إيجاب مبتسمًا بينما أصيبت "أفنان" بالإحباط فهو يصد كل محاولاتها في التقرب منه.

*****

خرجا للحديقة بعد انتهائهما من الفطور يتحدثان بمفردهما بعد غياب طويل. ظهر الضيق على وجه "أرقم" فسار صامتًا، يركل الأرض بقدمه ساخطًا. عقد "أمير" حاجبيه في دهشة قبل أن يسأله:

- ماذا بك يا أخي؟!

وقف قبالته ثم قال بغضب عارم بعدما زفر بضيق:

- هذا الـ "سُليمان" يثير غضبي، لا أعلم كيف أبي وافق على خِطبته من "أفنان"؟!

قال "أمير" بلامبالاة:

- وماذا في ذلك، لا أفهم؟!

نظر له "أرقم" مندهشًا ليقول باستغراب:

- أنت يا "أمير" مَن تقول هذا، ظننتك ستقف بجانبي وتقنع أبي بالتراجع عن تلك الخِطبة .. ثم استطرد قائلًا وهو ينظر لنقطةٍ ما في الفراغ:

- ولكن يبدو أن "أفنان" لا تعنيك لأنها ليست شقيقتك الحقيقية

هلع "أمير" من تطرق هذه الفكرة لذهن "أرقم"، جحظت عيناه وشحب وجهه في اللحظة. ليس منصدمًا لأن "أرقم" شك في محبته لشقيقتهما، فهو بالفعل لم يعتبرهما يومًا إخوته كما يزعم. ولكن خشى أن ينكشف حبه الخادع لهما فأسرع يقول بحزن مصطنع:

- ماذا تقول يا "أرقم" بالطبع أخاف عليها وأحبها .. ثم استطرد يقول بخبث:

- ولأجل ذلك يجب أن ننتظر ونتريث لحين نصب فخ له يمحيه من القصر نهائيًا، فحفل الزفاف لم يتم بَعد، هذه مجرد خِطبة من الممكن أن تنتهي وقتما نشاء

ابتسم "أرقم" بسعادة ثم قال:

- معك حق، دائمًا تغلبني بتفكيرك المتريث هذا

قال "أمير" بنبرة ذات مغزى راسمًا فوق ثغره ابتسامة خبيثة واثقة:

- التريث في أي شئ يا أخي العزيز يحقق الهدف على أكمل وجه

لم تُنشئ "ميسم" أطفالها على كره أخيهم أو نصب الحيل من وراء ظهره من أجل كرسي السُلطة أو غيره، لذا كان من السهل على "أمير" ادعاء المحبة والخوف عليهم ليصل لِما يريد. والده لا يفضلهم عليه بل بالعكس تمامًا فـ"أمير" تولى ولاية روماف منذُ زمن حتى وإن لم ينتقل إليها إلا منذُ عام واحد فقط، أما "أرقم" فهو مجرد مشارك للرأي لا أكثر. "أمير" يضع "ميسم" نصب عينيه، يراها سرقت أشياء أمه لذا يعاقب أولادها بطريقة متوارية.. يضمر لهما الكراهية بينما يبتسم في وجوههم مدعيًا المحبة فقلبه لا يقدر على تقبّلهم.

تذكر يوم ولادة "أرقم"، بعد مرتين قام فيهما بإيذاء "ميسم" أثناء شهور حملها الأولي، فيسقط جنينها قبل تمامه..

يوم الولادة..

وضعوا بين يديه أخيه الصغير عندما كان في الثالثة عشر، أخذ الرضيع يتململ بين يديه مغمضًا عينيه بإصرار. لم يبتسم ولو لوهلة وهو يحمله، سأله "بكري" في حيرة:

- ألا يعجبك الصغير يا "أمير"؟!

ابتسم ابتسامة مجاملة ثم قال وهو يتأمله بغضب مكتوم:

- بلى، إنه ذو وجه بهيّ

ردّ "بكري" بابتسامة عابثة:

- كأمه تمامًا

اغتاظ "أمير" فسأله بنفاذ صبر:

- أي إسم ستدعونه به إذن يا أبي؟؟

أخذ الرضيع منه ثم قال بفخر:

- "أرقم"

اغتصب ابتسامة مرددًا:

- جيد جدًا

بكى كثيرًا تلك الليلة لأنه لم ينجح هذه المرة في قتله، رغم الابتسامة التي لم تفارق وجهه أمامهم. أقسم أن ينجح ذات مرة في فعلها ولكن ليس الآن بعدما تتعلق "ميسم" به ويغدو شابًا قويًا، سيحرق قلبها كما أحرقت قلبه وسرقت أمه.

الآن..

عانقه "أرقم" قائلًا بامتنان:

- شكرًا أخي لأنك ستساعدني نخلّص "أفنان" من ذاك الحقير

ربت "أمير" على ظهره قائلًا بخبث:

- العفو يا أخي العزيز، أنا هنا من أجل مساعدتك على نيل حياة هانئة للأبد دون عوائق

لم ينتبه أيًا منهما للأذنان اللتان التقطتا ما تبادلاه من حديث خطير بشأن نصب فخ لـ"سُليمان". رحلا باتجاه باب القصر الذي خرجا منه منذُ قليل وفي قلب كلٌ منهما مشاعر مختلفة.. أحدهما من ثلج والأخر من نار.

***

(٤)

اصطفّت العربة المجرورة بالخيول داخل شارع من شوارع الحي الشعبي بمدينة ديلماف. تبادل بعض السكان في المدينة خبر دلوف عربة من عربات القصر الملكي الحي الشعبي، فتجمعوا أمام مقام العربة حيثُ أنهم يعلمون أن منزل والدة كنداكة ديلماف يقع هنا وبالتأكيد هي مَن داخل العربة. وطأت "ميسم" أرضية الحي وهي تتأمل باب المنزل البسيط المغلق بإحكام، تقدمت منه ولحقت بها "أفنان" التي أصرّت على المجئ لرؤية جدها وجدتها..

- شكرًا لكِ، "أفنان"

نطقتها "ميسم" بامتنان تام وهي تتأمل إبنتها الماثلة أمامها قبل أن تطرق الباب. تسائلت "أفنان" بدهشة عارمة:

- علام يا أمي؟!

ابتسمت "ميسم" ثم أمسكت بكفها قائلة:

- لأنكِ جئتِ بنفسك إلى هنا دون طلب مني كي تدعو جدك وجدتكِ لحفل خِطبتكِ

وضعت "أفنان" كفها هي الأخرى فوق كف والدتها لتقول:

- هذا أمر طبيعي يا أمي وليس تفضّل مني، لذا لا داعي لشكرك

ابتسمت "ميسم" ابتسامة واسعة حيثُ أن زواجها ليس بالسئ لهذه الدرجة، يكفي أنه أثمر لها تلك النبتة الصالحة.

دلفا لمنزل الجد والجدة اللذان رحبا بهما ترحيبًا حارًا متسائلين عن سبب غياب "أرقم"؛ تعللت "ميسم" بكثرة العمل كاذبة، فهو مثل أبيه في بعض الأشياء.. يحتقر الفقراء حتى وإن كانوا عشيرته.

عانق الجد والجدة حفيدتهما التي غابت عنهما كثيرًا آخر فترة، أخذا يقبّلاها بشوق دفين وسط ابتسامة مشرقة من "ميسم .."

- مبارك يا إبنتي، سعدنا كثيرًا من أجلك

قالتها جدتها بسعادة حقيقية بعدما أخبرتهما بحفل خِطبتها، بينما اكتفى الجد بابتسامة بسيطة. تركتهما "أفنان" لتقف أمام النافذة تراقب المنزل الذي يجاور منزل جدتها؛ ثم قالت في عبث:

- تتذكرين يا أمي الشاب المراهق الذي كُنتُ ألعب معه وأنا طفلة عندما كنت آتي إلى هنا، كانت أيامًا رائعة حقًا

قالت "ميسم" في دهشة:

- ألا زلتِ معتقدة أن كان هناك أحدًا يلعب معكِ هنا وأنتِ صغيرة!!

ردت "أفنان" بإصرار:

- أقسم لكِ يا أمي كان يلعب معي وعند رؤيته لكِ يختفي في لمح البصر، لا أعرف لِما!!

- إذن جدتك ستحكم .. ثم استطردت متسائلة وهى تنظر لوالدتها:

- هل كان هناك شاب مراهق يقطن في هذا البيت يا أمي؟!

جاوبتها والدتها مبتسمة ككل مرة تتسائل فيها عن ذاك الشاب المراهق المجهول منذُ أن كانت "أفنان" صغيرة:

- لا يا إبنتي، البيت هذا كانت تقطن فيه أسرة من ثلاث أفراد، أب وأم وشاب راشد فقط

أسرعت "أفنان" تقول بحماس لأن كفتها طبّت:

- ها هي قالت شاب، إنه هو

- لا يا إبنتي، "ليث" لم يكن بالمراهق كي يلعب معكِ بل كان شاب يافع عندما كُنتِ صغيرة

أردفت الجدة وهي تصنع بعض المخبوزات لهما، فعاد اليأس يتلكأ على صفحة وجه "أفنان" من جديد وهي تقول:

- ألم يكن له أخوة يا جدتي، بالتأكيد أنا لم ألعب مع شبحٍ ما!!

ضحكت "ميسم" فردت الجدة بأسف:

- أمه أنجبت توأم متماثل ولكن ماتا في حريق بالبلدة

صمتوا للحظات ثم انسحبت "أفنان" من بينهم لتراقب الباحة التي كانت تلهو فيها مع ذاك المراهق بابتسامة حزينة؛ كان حنونًا عليها، كل مرة يقابلها فيها عندما تأتي إلى هنا يجلب لها الحلوى وثمرة الدّراق التي تعشقها أكثر من غيرها. أول مرة رأته كانت تبكي بعدما سقطت سهوًا فوق ركبتها على الأرض الوعرة؛ ساعدها على النهوض ثم طبب جراحها وأعطاها الحلوى كي تكفّ عن البكاء. سألها عن إسمها بعدما هدأت

الدّراق: الخوخ.

فجاوبته وهي تحاول فك تغليف الحلوى ببراءة:"أفنان"، كانت في السابعة من عمرها حينها فسألته بفضول:(ماذا عنك؟)؛ زاغت عيناه ثم جاوبها بابتسامة واسعة:(سأذهب للبيت الآن، أخبركِ المرة القادمة

يا صغيرة). أتى في المرة التالية وهي تقف في الباحة تراقب المارّة بملل فلوّحت له عندما أبصرته، اقترب منها وبدآ اللعب واعتادت هي رؤيته كل مرة تأتي فيها إلى هنا.

تذكرت ماذا كان يقول عند رؤيتها ولم تفهم معناه وهي صغيرة، حيثُ كانت تبتسم ببلاهة، أما الآن فقد فهمت أنه لم يكن سوى بيت شعر:

أفنان يا نفحة عطر غابت وانا روحي معه

يا حلمي الوردي على درب المتاعب والشقا

(لقائلها)

رفعت زاوية فمها في سخرية عندما تذكرت آخر ما تفوّه به لها قبل أن يختفي تمامًا:

- سأعثر عليكِ يا حلمي الوردي

ربما جدتها ووالدتها على حق؛ هذه مجرّد أحلام يقظة.. وربما لم يكن هو سوى عابر من الطريق لا أكثر.

*****

- ماذا بكِ إبنتي، لِما أرى الحزن يتخذ من وجهكِ مستقرًا ومقامًا؟!

تسائلت والدتها وهي تجلس بجانبها على الأريكة الخشبية التي تتوسط المنزل الخالي من الأثاث، بينما كانت "أفنان" تتحدث مع جدها بعيدًا عنهما. ردت "ميسم" باقتضاب:

- لولا خطأكما يا أمي لِما كُنتِ تريني ذابلة الآن

أطرقت الأم برأسها ثم قالت في حزن:

- لقد اخترت لكِ المعيشة الرغيدة، لا أريد لكِ العذاب الذي أعيشه

نظرت لها "ميسم" بأعين دامعة ثم أردفت:

- الحُب ليس عذاب يا أمي، أنا لا أهتم بالمال أكثر من المودة والرحمة

- "فياض" مات قبل التمتع بشبابه بسبب ثورانه الأهوج تاركًا خلفه طفل وقطعة لحم في الأحشاء لم تكتمل بَعد، وأنا كنت أعرف بأفعاله تلك لذا أبعدتك عنه واتخذت لكِ الزوج المناسب الذي سيحميكِ من أي شئ لا الهارب من كل شئ حتى وطنه

قالتها والدتها باسترسال مدافعة عما فعلت معها أو بالأحرى مبررة خطأها. ردت "ميسم" بحزن كابحة دموعها الحارّة من السيل:

- بالنسبةِ لي يا أمي الهرب مع "فياض" من كل شئ حتى وطنه أسلم من المكوث داخل قفص ذهبي مكتفة الأيدي .. ثم استطردت تقول بنبرة صارمة:

- لا تنسي أنه كان شجاعًا مقدامًا، دافع عن أرضه ببسالة، لولا تلك السلطة الطاغية لِما كان هاربًا يا أمي، أرادوا التخلص منه لأنه يدافع عن حقوق وطنه ليس إلا

صمتت والدتها مبتلعة مرارة العلقم متذكرة كيف ساومت على إبنتها تلك الليلة.. فهي من أجل الهدايا والمال استسلمت لرغبة طاغي دون مراعاة لمشاعر إبنتها المتعلق قلبها بأخر.

***

(٥)

استغلّ "بكري" مساحة شاسعة من الغابة التي تحيط القصر؛ ليبني فوقها عدة بنايات منخفضة بأبواب حديدية متينة لا تقدر عليها ذئاب الغابة حتى. أزال الأشجار حينها من هذه المنطقة لتصلح للبناء مما أغضب أهالي البلدة فالأشجار مَن تمنحهم هواءً نقيًا خالي من رائحة الدماء التي بدأت تفوح من أرض "ديلماف".. ولكن بالطبع اعتراضهم لم يخرج للنور، بقى داخلهم في ظلمات أنفسهم.

يقف كالصقر رافعًا رأسه لأعلى في ثقة بالغة على الباب الذي تدلف منه أهالي المسجونين، كان مقتضب الملامح مقطب الحاجبين. يضع كفه الأسمر فوق سيفه الذي لا يفارقه البتة، إشرافه على السجون يوم زيارات الأهالي لأبنائهم، آبائهم، أزواجهم أو نسائهم يزيده كمدًا، فهذه المهمة الوحيدة التي تتطلب منه مجهودًا نفسي أكثر من عضوي.. فمن منّا يحب رؤية مثل هذا المشهد؟!

على يمينه.. فتاة تبكي وهي تحتضن كفنّ والدها الكهل الذي تم حبسه منذُ عشر أعوام، بسبب اعتراضه على مبلغ الإتاوة التي تساوي أضعاف ربحه اليومي، وهي تخبره كم اشتاقت لوجوده بينهم في المنزل أيام العيد.

على يساره، زوجة تسرد لزوجها الثلاثيني الذي تم حبسه منذُ ست سنوات، لأنه رفض بيع بضاعة فاسدة للناس بأمر من السُلطة لمجرد أنها بضاعة من الخارج لا تستطيع البلدة رفضها، مواهب أطفالها الثلاث بابتسامة مشرقة كابحة دموعها كي لا تزيد همه، فهو قد حُرم رؤيتهم يكبرون أمامه بمرور السنين لجريمة لم يقترفها.

وهناك في آخر الرواق، فتاة عشرينية تجلس أمام زوجها الذي أُخذ يوم عقد قرانهم من خمس سنوات، لأنه حرّض الناس على معارضة أمر السُلطة برفع أسعار السلع في السوق التجاري بينما تقصم الإتاوات ظهور الفلاحين الذين يعملون ليل نهار.

وتحت عيناه تمامًا، تجلس أُم أمام ولدها الشاب الوحيد الذي حُكم عليه بالموت أمس بعد مدة سجن قضاها ثلاث أعوام، لأنه ضرب حارس من حرّاس القصر كان على وشك ضرب أمه في السوق التجاري بسبب رفضها السعر الذي قرره مقابل سلعة ابتاعها منها.

www.secretsofstories.com

أبصر في أقصى اليسار، تلك الفتاة العشرينية التي أُخذت من وسط بيتها وأهلها لتُلقى وسط المسجونين من الرجال لأن أحد الحرّاس رآها تُعلّم

بعض الأطفال وتنير عقولهم لأجل مستقبل مشرق يستطيعون فيه التعبير عن رأيهم بحرية دون قيود تنتظرهم أيًا كانت أعمارهم.

استعاد رباطة جأشه من جديد ونفض عن عقله الحزن ثم جهر بصوته الأجش بعد مرور عشرِ دقائق فقط:

- انتهت الزيارة

تسابقت دموعهم في السقوط لحظة الوداع، تفرقت الكفوف من جديد.. النصف الأول عاد لظلام موحش وأرض باردة خالية من الحياة والنصف الثاني عاد لحياة لدِنة ولكن خالية من الكفوف التي كانت تضمهم فأضحت بلا معنى.

أخذ من الأهالي أكياس الطعام جميعها رافضًا إعطاءها للمسجونين معللًا في سخرية:

- هذا سجن وليس قصر ترفيهي لهذا الطعام الفاخر .. ثم استطرد قائلًا بلهجة آمرة للحرّاس:

- ألقوه في القمامة أو اطعموه لحيوانات الغابة

أومأ له الحرّاس بإيجاب في صمت فانسحب من السجن بعد انتهاء مهمته بينما خلف أحد الجدران سال دمع عيناها سيلًا في قهر، فهذا ليس الزوج الذي كانت تريده لإبنتها.. نسخة مصغرة من "بكري" وأسوأ.

***

(٦)

في مكان أخر ليس ببعيد عن بلدة ديلماف ولا بقريب من قرية روماف، حيثُ الصحراء، الرمال، أمتار قليلة من العشب، ونهرٍ لا يتعدى المائة أربعة وثلاثون مترًا.. حيثُ آياز.

بصحراء ذات أرض صلبة وعرة مطلة عليها الشمس الحارقة؛ يجلس في المرعى بجوار الأغنام حاملًا بيده عصا خشبية. شاردًا في وعده الذي ما زال لا يقدر على أن يوفيه؛ فالمرء دون هويته ليس له قيمة.. إذن كيف يتجاهل الأمر ولا يبحث فيه؟! بالإضافة لحلُمه الذي يأبى تركه مقلقًا مضجعه.

وقف من مجلسه وهو يزيل عن جلبابه القصير ذو اللون البني الشاحب،. حبات الرمال المتعلقة به إثر جلسته أرضًا، عدّل من موضع عمامته المستقرة فوق رأسه التي تماثل جلبابه في اللون ثم

توجه لمنزله الذي يقع على مسافة متر من المرعى، تاركًا الأغنام تقتات العشب.

دلف للمنزل البسيط المكون من طابقين، العلوي به غرفتان بداخل كلٍ منهما فراش صغير، والسفلي به أريكة خشبية مغطاة بالصوف، دورة مياه، وبساط صغير منسوج من الخوص - حصيرة - . يصل بين الطابق العلوي والسفلي سُلم خشبي ضعيف الهيكل. أبصر زوجته ذات الوجه المبتسم دائمًا؛ تعجن الخبز وهي جالسة أمام فرن الطين بجلبابها الأسود الفضفاض الذي حمل آثار الطحين عليه، ووشاح رأسها الأسود الذي يغطي معظم شعرها أسفله نظرًا لباب منزلهم المفتوح طيلة النهار. من لحين لأخر كانت تمسح بأكمام جلبابها المرفوعة لمعصميها، حبات العرق المتجمعة فوق جبينها بفعل حرارة الفرن.

اقترب منها ثم قال ببعضِ انزعاج مقطبًا حاجبيه:

- غطي ذراعيكِ يا "رُواء"، مَن سيمر من أمام باب منزلنا سيراهما مكشوفان

ابتسمت بعبث ثم قالت وهي ما زالت تعجن الخبز ناظرة لبطنها المنتفخ:

- أنظر يا ولدي، أبيك يغار علىّ بطريقة تشعرني بالغرور والله

قال بغيظ:

- هيا، غطي ذراعيكِ ولا تختبرين صبري أكثر يا "رُواء"

استشعرت جديته في الأمر فقالت بحذر:

- يا "حَمَد" الطحين والنار سيفسدان أكمام جلبابي وأضطر لشراء غيره، وأنا بحاجة المال لأجل ولدنا القادم واحتياجاته

اقترب منها أكثر ليجلس بجانبها فوق الأرضية قائلًا بصرامة:

- سأجلب لكِ ألف غيره ولا إن الغرباء يتطلعون على قطعة من جسدك

ابتسمت بخجل فأطرقت برأسها أرضًا لتردد بخفوت:

- لا أصدق أن أمنيتي تحققت وقد حصلت على زوج حنون تقي مثل أبي

رفع رأسها إليه واضعًا يده أسفل ذقنها ليقول بحب دفين غارقًا في بُنيّة عيناها:

- أنا مَن أمنيتي تحققت فيكِ، نعم الزوجة أنتِ وستكونين نعم الأم قريبًا

اتسعت ابتسامتها فردد بجدية:

- شكرًا لكِ يا "رُواء" على كل ما قدمتيه لي من دعم منذُ أول مرة رأيتكِ فيها أنتِ وأبيكِ

فرت دمعة هاربة من عيناها لتقول بصوت متحشرج:

- لم يمر على زواجنا سوى عام واحد، ولكن عشرتنا تمتد لعشرِ سنوات، مَن كان يظن أنني سأتزوج الشاب الذي وجدته على الطريق ..

انتابتها ضحكة رقيقة قاطعتها عن استرسال ما في جوفها، فشاركها ضحكتها بابتسامة عاشقة ثم استطردت تكمل بامتنان حقيقي:

- مَن يستحق الشكر حقًا هو أبي لأنه جمع بيننا في خير

كان على وشك تأييدها في الحديث ولكن قاطعه أحدهم في الخلفية:

- مَن استدعاني!!

نظرا باتجاه الباب فوجدا أبيها الستيني يقف على أعتاب باب المنزل، محاولًا إدخال بعض الأخشاب. هرول "حَمَد" باتجاهه كي يساعده في حملهم بينما قالت "رُواء" وهي تنتشل الخبز من بين النيران بعدما نضج:

- كنّا نتحدث عنك يا أبي، ولكن في الخير لا تقلق

ربت على كتف "حَمَد" قائلًا في فخر بعدما حمل عنه الأخشاب للداخل:

- حفظ الله عمرك يا بنيّ

ابتسم "حَمَد" ثم انحنى يقبّل كفه احترامًا وتقديرًا في حين طرق أحدهم باب منزلهم الموارب، أسرع "حَمَد" يفتحه على مصرعيه وسط نظرات "رُواء" وأبيها الفضولية، فوجد سيدة خمسينية ترتدي الأسود من رأسها لأخمص قدميها..

- كيف حالك يا "حَمَد"؟!

ابتسم لسؤالها الطيب ثم ردد:

- بخير يا خالة "زينب"، تفضلي "رُواء" بالداخل كانت تنتظرك

بادلته الإبتسامة ثم دخلت في حرج، حيّت والدها ثم احتضنتها واطمئنت على ولدها المستقر بأحشائها. رددت "رُواء" بهدوء:

- لقد أعددت حلويات الوليمة كلها والآن انتهيت من الخبز وغدًا قبل الموعد سأعدّ الطعام كي يكون ساخنًا قبل أن تسافري به لـ"ديلماف"

تقلصت ملامح المرأة للوجوم فتسائلت "رُواء" بقلق:

- ماذا بكِ يا خالة!! تم إلغاء الوليمة أليس كذلك؟!

قالت الخالة "زينب" مسرعة:

- لالا يا إبنتي، الحفل سيقام غدًا في الموعد والطلب ما زال ساري ولكن هناك عائق صغير

تسائلت في قلق:

- ما هو يا خالة؟

www.secretsofstories.com

- زوجي مَرِض اليوم ولا استطيع السفر وتركه ككل مرة، أعرف أنكِ تعبتِ في تحضير الطعام ولكن هل تقدرين على توصيله هناك بدلًا مني هذه المرة فقط؟!

هدر صوته في الأرجاء:

- لا يا خالة، "رُواء" في أواخر شهور حملها، كيف ستتحمل سفر هذه المسافة!! من الممكن أن يأتي لها المخاض في أية لحظة

رددت الخالة في يأس:

- معك كل الحق يا ولدي

عارضته "رُواء" في هدوء:

- وماذا في ذلك يا "حَمَد"!! ديلماف ليست بعيدة

وقف قبالتها محتجًا:

- لا يا "رُواء" لقد تركتكِ تعدين الطعام رغم حملك ولن أسمح لكِ بأكثر من ذلك، ستؤذين نفسك وولدنا

زفرت في ضيق لأنها تحب عملها كطاهية كثيرًا فاقترح والدها:

- إذن اذهب معها يا بنيّ وساعدها في عملها، ما رأيك؟!

- فكرة سديدة يا شيخ، أؤيدك فيها

نطقتها الخالة بابتهاج. فهتف "حَمَد" بحدة أجفلتها:

- أنا أعترض لأجل طريق السفر يا شيخ لا أكثر، أين حل المشكلة إن سافرت معي، ستتعب أيضًا كلاهما يؤديان لنفس الطريق!!

- صدقني يا "حَمَد" لن أتعب، أنا أقوى من ذلك بكثير

قالتها برجاء فلم تجد منه أي رد فعل، فأضافت وهي تشير نحو صوانٍ نحاسية تملأ أرضية المنزل حاملة ما لذّ وطاب من الحلويات والخبز:

- أنظر لقد أعددتُ كل ذلك وحدي وها أنا أمامك بخير تمامًا، وإن جئت معي لن أتعب في السفر لأنك ستساعدني كثيرًا

زفر بنفاذ صبر ثم نظر للاتجاه الأخر. لم يلوح اعتراض في الأفق من ناحيته أو توسل أخر من ناحيتها فاستبشرت الخالة خيرًا أن طلب الوليمة لن يذهب أدراج الرياح.

***

(٧)

الساعة الثانية بعد منتصف الليل..

لمحته يدلف القصر في ساعة متأخرة من الليل، فاستغلت غياب زوجها عنها لتنزل بسرعة البرق إلى أسفل كي تتحدث معه. يجب أن تبعده عن إبنتها مهما كان الثمن حتى وإن ترجّته باكية.

هبطت درجات السُلم الأولى بأعجوبة فجسدها كاد يسقط عدة مرات بسبب فوضى رأسها. لمحته قبل أن تصل لآخر درجة يدلف غرفة خاصة باجتماعات زوجها مع وزرائه فاقتربت من الغرفة في تعثر.. تقدم قدم وتؤخر أخرى.

كادت طرق الباب ولكن استوقفها حديث جاري بينه وبين أخر، لم يكن صوت الأخر ذاك صوت زوجها. ألصقت أذنها بالباب جيدًا لتسمع حديثهما الدائر خلف الباب المغلق، فطفقت عيناها تتسع في صدمة كلما سمعت أذناها المزيد..

- لا تنسَ أن "بكري" صَيدَن قام بالكثير من أجلك

قالها "سُليمان" بنبرة جافة وهو ينظر للأخر أمامه الذي قال بجشع:

- أعلم ولكن هذا السعر مقابل مجهودي المضني غير عادل بالمرة

ارتفعت زاوية فم "سُليمان" في سخرية ليردد:

- عجبًا!!، أنتَ مَن تتحدث عن العدالة!! لقد ساهمت في قتل مائة شخصًا بفعل الأسماك السامّة التي قمت ببيعها للعجوز زوج "أم بديع" بسوق روماف التجاري، يا صائد المصائب أنت لا الأسماك

- كان هذا غرض "بكري" صَيدَن وليس أنا، كي يخفف من عدد السكان في تلك القرية اللعينة

قالها الصيّاد بنزق فردّ "سُليمان" باشمئزاز:

- كان بيدك أن ترفض ولكنك وافقت على قتل هؤلاء الأبرياء من أجل الذهب، إذن يدك أنت أيضًا ملطخة بدمائهم وليس ذلك فقط بل تسببت في حبس شخص برئ أيضًا

- أيًا يكن، لقد اتفقت مع "بكري" صَيدَن على مائة جرام من الذهب مقابل قتل مائة شخصًا بأسماك سامّة لا تصلح للطعام والآن تعطوني خمسون جرامًا فقط، ما هذا الغش!!

قالها الصيّاد بانفعال جمّ مما جعل "سُليمان" يفقد أعصابه، فأطبق على عنقه بقبضته قائلًا بتهديد:

- لا تنسَ مكانتك أيها الحقير، لا ترفع صوتك بوجهي مرة أخرى، تريد بقية حسابك إذن تعامل مع سيدك وليس أنا، فهو مَن اتفق معك منذُ البداية

سعل الصيّاد بشدة ثم توسله بصوت مبحوح، مختنق، خرج بصعوبة من بين سعاله:

- حـ..حـ..حسنًا .. حسنًا اتـ..اتركني أرجوك، لـ..لن أفعلها مرة أخرى، أقـ..أقسم لك

تركه "سُليمان" دافعًا إياه صوب الحائط ثم بصق تجاهه قائلًا بتقزز:

- حقير

ابتعدت عن الباب ثم اختبئت خلف أحد أعمدة الطابق الأرضي عندما سمعت وقع أقدامه تقترب من باب الغرفة، لمحته من خلف العمود الضخم يخرج أولًا قبل الصيّاد. ظلّ لدقائق ينظر يمينًا ويسارًا، أعلى وأسفل يتأكد من خلو القصر.. إلا منه والصيّاد. ثم توجه لخارج القصر مرة أخرى بينما يجرّ خلفه الصيّاد ممسكًا بتلابيبه.

استندت بظهرها على العمود الضخم ثم سحبت نفسها لأسفل محتكة

به، إلى أن استقرت أرضًا منكمشة على حالها مثل القطط الشريدة في ليلة شتوية عاصفة؛ وسط دموعها التي تنهمر فوق وجنتيها بغزارة كشلالات قرية روماف الأخاذة. يا إلهي كم تشبه هي هذه القرية كثيرًا.. مَن يراها من الخارج يظنها لوحة فنية رائعة من الطراز الأول، حيثُ شلالات مياه مرتفعة تنتهي بنهرٍ منهمر باللون الفيروزي المخالط للأزرق، تتصادم مياهها الساقطة بصخور صلبة وأخرى رخوة. محاطة بالجبال من كل ناحية.. جبال مرصعة بالأخضر والأصفر. ولكن من الداخل ما قبل تلك المساقط المائية الساحرة بأمتار قليلة، هناك أرض وعرة صلبة تستقر فوقها رمال ذهبية قاسية، وفي

منتصفها تمامًا سوق تجاري كبير يجمع بين الخير والشر، الفقر والغنى، الظلم والعدل.

كهذه القرية تمامًا هي؛ جميلة من الخارج، مبتسمة دائمًا في وجوه الغرباء بينما في داخلها حروب ضارية وخراب وظلمات كقعر جُبّ موحش. ارتعش جسدها عندما تذكرت تلك الحادثة التي مات فيها مائة شخص نزيه منذُ خمسة أيام، بكت كثيرًا هذه الليلة التي أخبرها بها زوجها عن أسماك سامّة ابتاعها مائة ساكن من أهل القرية التابعة لبلدتهم - روماف- فأودت بهم للموت فورًا. وعدها حينها أنه سيعاقب الداني حتى وإن كان من عشيرته، فغاصت في ثبات عميق ببال هادئ مطمئن لأول مرة في حياتها. هرول إليها ولدها بعدها بيومين يزف لها خبر القبض على الشخص الذي ابتاع السمكات السامّة فشكرت زوجها على وفائه بوعده لها. أما اليوم وما بعده.. وإلى حين صعود روحها لبارئها، عيناها لن تغفى أبدًا.. سيساورها الأرق والندم كتوأم متلاصق.

تعالت شهقاتها حتى كادت أنفاسها تتوقف من كثرة البكاء، قهرًا على تلك الأرواح البريئة التي ذهبت بلا رجعة لرغبة دنيئة تملكت زوجها، أيظنهم ماشية تقتات العشب فأراد التخلص منهم بذبحهم كي يحتفظ بكمية أكبر منه؟! من أين أتت له كل تلك الجرأة؟! يظن نفسه الجبّار

الأعلى ليقبض روحهم قبل ميقاتها؟! إلى أين وصل غروره وجبروته تلك المرة!!

قطع سيل تساؤلاتها صرخات مدوية آتية من خارج القصر فهرولت للخارج، لتجد الحرّاس يهرولون باتجاه الغابة وقد انقطعت الصرخات فجأة.

****

مسحت دموعها بأناملها ثم تتبعتهم بخطوات واسعة. وصلت بعد لحظات لأعتاب الغابة فرأت الحرّاس يشكلون هالة حول إبنتها وذاك الشيطان، اقتربت أكثر من الحلقة فأبصرت جثة هامدة أخرى تتدفق الدماء من خط دامي برقبتها. فأيقنت أن تلك الصرخات لم تكن سوى صرخات إبنتها..

- أنظر، لقد نوى منذُ ساعة واحدة فقط أن ينتقم من تلك الفتاة التي أهانته وسط السوق التجاري برومانف بعدما تحرّش بإحدى بناتها والآن أضحى جثة هامدة، يا للقدر!!

سمعتها "ميسم" من أحد الحرّاس الذي كان يتحدث مع حارس أخر يقف بجانبه. عقدت حاجبيها في دهشة فكم مرّ عليها من الوقت تبكي خلف العمود الضخم بالداخل ليحدث كل ذلك؟!. كانت على وشك الاقتراب أكثر من إبنتها التي بالتأكيد الآن في أشد حالات ذعرها لما ترى

فهي رقيقة كريشة تتلقفها الرياح.. لا تتحمل. ولكن صوت جهوري أوقفها وأجفلهم جميعًا:

- ماذا حدث؟!

التفت الجميع لمصدر الصوت فأبصروا "بكري" بملامح منزعجة يجاوره "أرقم" و"أمير"، فيبدو أن صوت الصرخات وصل إليهم أيضًا. هرولت "أفنان" لأحضان والدتها عندما رأتها تقف في الخلف، لتقول بخوف:

- أمي، حمدًا لله أنكِ هنا

ربتت "ميسم" على ظهرها بحنو لتردد في أذنها بنبرة مطمئنة:

- لا تقلقي يا صغيرتي، أنا هنا بجانبك

أبصر "بكري" الجثة بعدما اقترب من الهالة التي شكّلتها الرايات السوداء ثم تسائل مرة أخرى وهو يهدر بهياج عنيف في وجه الحرّاس مشيرًا للجثة الساكنة تمامًا:

- أين كنتم أيها الحمقى عندما حدث ذلك؟!

- كنّا أمام القصر "بكري" صَيدَن، صرخات السيدة الصغيرة جلبتنا إلى هنا

نظر تلقائيًا تجاه "أفنان" التي ما زالت تستقر بأحضان زوجته، وقد كسى القلق ملامحه من أجلها فهي بمثابة نَفَسه الذي يعبئ رئتيه فما

يؤذيها مرة يؤذيه عشرات المرات. تقابلت عيناه بعينا زوجته الرمادية لبرهة، فأشاحت بوجهها الذي تلكأت عليه الجدية الصارمة بعيدًا عنه عندما تذكرت حديث الصيّاد عما فعله هو من دناءة، اندهش من ردة فعلها ولكن لم يعلّق الآن فهناك كارثة أخرى تنتظره.

اقترب من "أفنان" ليتسائل بقلق حقيقي بعدما أخبروه الحرّاس بصرخاتها:

- ماذا كُنتِ تفعلين هنا في هذا الوقت يا صغيرتي، أخبريني ولا تخافي؟!

اندهشت "ميسم" من طريقته الحانية مع إبنته وبقية أطفاله، فهي لا تتلائم البتة مع قسوته وجبروته تجاه رعيته. ابتعدت "أفنان" عن أحضان والدتها برفق ثم نظرت له بوجهها المحمرّ من كثرة البكاء لتردد بصوت باكي:

- رأيت "سُليمان" من نافذة غرفتي يخرج من القصر وهو يجرّ خلفه أحد الرجال ممسكًا بتلابيبه، أصابني القلق على "سُليمان" لأن الأمر يبدو خطيرًا، ظننته مجرم حاول دخول القصر وإيذاء أحدٌ منّا فخرجت من الباب الخلفي للقصر كي ألحق به

- أرأيت يا أبي هذا المجرم هو مَن يفتعل كل هذه الجرائم

هدر بها "أرقم" وهو يشير لـ "سُليمان" الساكن تمامًا بجانب الجثة الهامدة داخل هالة الرايات السوداء. لم تهتز عضلة واحدة في وجه

www.secretsofstories.com

"بكري" حيثُ حثّ "أفنان" على استكمال حديثها بينما اصطك "أرقم" على أسنانه غضبًا من تجاهل والده له أمام هذا الجمع، في ظلّ تزيُّن ثغر "أمير" بابتسامة خبيثة:

- أكملي يا "أفنان"، وماذا بعد؟!

قالت باسترسال:

- عندما خرجت من الباب الخلفي للقصر ووصلت إلى هنا كان "سُليمان" في طريق العودة وقد رأيته وحيدًا دون الرجل الذي خرج به من القصر، كُنتُ على وشك سؤاله عن الرجل ولكن أبصرت أقصي يمينه الجثة فصرخت بفزع

قطعت حديثها ببكاء مرير وهي تضع يدها على فمها فأسرعت والدتها تحتضنها كي تهدئ من روعها بينما أمرها "بكري" بحسم:

- خذيها إلى غرفتها من فضلك، "ميسم"

طاوعته دون أن تنبس ببنت شفة منسحبة من بينهم فحالة إبنتها لا تستدعي العناد، بينما انتقل "بكري" لـ "سُليمان" يسأله في شك:

- مَن يكون هذا الرجل الذي خرجت به من القصر يا "سُليمان"؟!

كان "سُليمان" في عالم أخر.. عالمها، لم تقلق على ذاتها من ذاك المجرم مثلما ظنّته.. كما قلقت عليه، لحقت به دون تفكير لتشدد من أزره غير عابئة بمدى خطورة ذاك الرجل الذي يصحبه للخارج. ابتسم

بينما ظهرت الدموع في مقلتيه مقررًا في نفسه مصارحتها بعد عقد قرانهما.

"بكري" بنبرة أعلى بعدما لاحظ شرود "سُليمان:"

- "سُليمان" أنا أتحدث معك

انتبه "سُليمان" له معتذرًا:

- آسف "بكري" صَيدَن ولكن أمر "أفنان" يشغلني

- لا عليك، كُنتُ أسألك عن هوية هذا الرجل الذي رأتك "أفنان" تصحبه معك لخارج القصر

قالها "بكري" بشك متمعنًا النظر في قسمات "سُليمان" يحاول قراءة ما في جبعته، فردّ "سُليمان" بثبات:

- كان الصيّاد

لم يزد، ولم يحتاج لكلمات أكثر، لقد فطن الأمر سريعًا فهزّ رأسه في صمت. اقترب "أمير" من الجثة ليتفحصها فرأى ذات الحرفان الداميان اللذان رعبا ديلماف بأسرها الليلة الفائتة، فوق خط الذبح مباشرةً.. "أ.ح."

***

الفصل الرابع

(٢)

الساعة الثانية عشر ظهرًا..

كُل مَن تحت سقف ذاك القصر لم يذق النوم تلك الليلة بعد اكتشاف جثة أخرى لحارس أخر من الرايات السوداء، تلبست الحرّاس سرابيل الخوف بعدما كانوا صنّاعه؛ كلٌ منهم يتخيل نفسه الضحية القادمة. كانت أكثرهم خوفًا "ميسم" التي لم تترك غرفة إبنتها المرتعشة جسدًا منذُ ما حدث من ساعات. تزاحمت ذاكرتها بالرسالة التي وصلتها الليلة الماضية، الجثث التي توالت الواحدة إثر الأخرى دون خوف أو تراجع، والحرفان الداميان المحفوران بواسطة نصل خنجر حاد بمهارة فائقة.

كان "بكري" يأتي من حين لأخر ليطمئن على وردته الصغيرة التي باتت ذابلة بعدما رأت ولأول مرة في حياتها جثة قتيل تتدفق منها الدماء. أبصرها منكمشة على حالها فوق فراشها بينما أطراف ثوبها المنفوش تحيطها كهالة تحميها مما حولها، شاردة لا ترمش بعيناها حتى، هزيلة مستندة برأسها فوق ذراعيها باستكانة كمن فقدت أعز ما تملك،

شاحبة الوجه وكأن الجثة لفرد من عائلتها. تألم لرؤيتها هكذا.. انطفأ بريقها.

"أفنان" مشرقة الجبين، كالريشة البيضاء التي تلمسنا بنعومة، ذات وجه ملائكي لا تفارقه الإبتسامة، لسانها لا يقطر إلا عسلًا.. كأمها تمامًا. حَدَثْ كهذا آلم قلبها الذي لا يضمر سوى الحُب لفرط رقتها.. فهي لا تكره شيئًا أكثر من إراقة الدماء والكذب.

جلس على طرف الفراش بتأنٍ بينما كانت "ميسم" تنظر للجانب الأخر باقتضاب، متجاهلة إياه. ردد بخفوت وقد غلبت عليه النبرة الحانية:

- إن ما زلتِ متعبة وأردتِ إلغاء حفل عقد قرانك اليوم، سأدعمك

مرّت دقيقتان ولم تتحرك قيد أنملة، ظلّت على وضعها تنظر لنقطةٍ ما في الفراغ أمامها. قلقت عليها "ميسم" فوضعت كفها فوق كتفها الأيمن قائلة بتساؤل:

- هل أطلب لكِ الطبيب يا "أفنان"؟!، أرجوكِ تفوهي بأي شئ

حركت حدقتاها المحيطتان بهالة رمادية أخاذة، في تردد عدة مرات فابتسمت "ميسم" بلهفة لإنها إشارة خير تلوح في الأفق. رددت أخيرًا بنبرة أقرب إلى الهمس:

- لا أريد إلغاء الحفل يا أبي، ولكن أريد شيئًا أخر

تبادلا "ميسم" وزوجها نظرات الدهشة لبرهة ثم سألها والدها بحسم:

- ما هو وسأنفذه في الحال يا صغيرتي؟!

جاوبته في حزم:

- أريد رؤية "سُليمان" والتحدث معه قبل عقد قراننا

عادت الدهشة تغلفهما من جديد ولكن ممزوجة بثوب الصدمة، تسائلت "ميسم" ببعضٍ من لهفة:

- لِما يا "أفنان"، أتريدين إلغاء العقد نهائيًا؟!

نظرت لها "أفنان" في ضيق ثم قالت بنفي:

- لا يا أمي، أريد التحدث معه في أمر خاص بيننا فقط

عاد لها الإحباط من جديد فنهضت بهدوء من فوق الفراش لتخرج من الغرفة نهائيًا بينما لحق بها "بكري" كي يخبر "سُليمان" بطلب إبنته. عقد "سُليمان" حاجبيه في دهشة عندما أنزل "بكري" على مسامعه طلبها، لا يفهم سر استدعائها له الآن قبل عقد قرانهما بساعات. وقع الخوف بقلبه أن تطلب منه الإنفصال عنها للأبد بعد ليلة أمس، فحسم أمره أخيرًا بالذهاب إليها كي لا تلعب به التخمينات أكثر من ذلك.

طرق باب غرفتها ثلاث مرات بينهم لوعة، ثم أدار مقبض الباب ليفتحه بهدوء. عندما دلف كانت تنتظره في شرفة غرفتها توليه ظهرها بينما

خصلاتها السوداء تتطاير للخلف في مشهد أخاذ، أطرق برأسه أرضًا معاتبًا حاله وعيناه على استطالة النظر إليها قبل أن تكون زوجته.

وطأت قدماه الشرفة تاركًا باب الغرفة مفتوحًا لأنهما بمفردهما.

+تنحنح بحرج:

- أخبرني أبيكِ برغبتكِ في لقائي قبل عقد قراننا

جاوبته دون أن تستدير:

- نعم أردت التحدث معك بشأن أمس

ابتلع ريقه بصعوبة وكاد أن يشرح ما في جوفه ولكنها قاطعته بصرامة:

- لقد كذبتُ على الجميع من أجلك أمس لأول مرة في حياتي

تقلصت ملامحه وتلكأ على صفحة وجهه الندم، لتكمل هي بمرارة:

- لا أستطيع النظر في عينيّ أبي وأمي وإخوتي، يرافقني الندم منذُ أمس

- سأفعل جُلّ ما تريدينه يا "أفنان" حتى وإن أردتِ أن أبتعد عنكِ

قالها بجدية مدعيًا الصرامة بينما كانت هناك سكاكين من حُرقة تنهش قلبه، التفتت له قائلة بصوت باكي تتوسله:

- أنا لا أريدك أن تبتعد عني، أريدك أن تقول لي الحقيقة فقط .. ثم استطردت تضيف:

- لقد كذبت بشأن رؤيتك بمفردك أمس بعدما وصلتُ أنا الغابة، لم تكن وحدك حينها كانت هناك إمرأة تتشح بالسواد، خافية وجهها تقف أمامك ثم فرّت هاربة عند وصولي

صمتت لثانية ثم تسائلت في شك:

- مَن هي؟! أهي مَن ساعدتك في قتل الحارس؟!

احتدت نظراته تجاهها لأول مرة ثم هدر بغضب:

- ماذا؟! أتظنين أنني مَن قتلت الحارس؟!

بكت، لم تعد تقدر على كبح مياه عيناها أكثر، فقالت من وسط بكائها المرير:

- أرجوك جاوبني، الشك يفتك بي وأنا أرفض تصديق هذا الحدس فأنا مغرمة بك ولا أستطيع الابتعاد عنك حتى وإن كنت القاتل .. ثم استطردت قائلة بتوسل:

- أرجوك، أرِح قلبي

رق قلبه فأغمض عيناه مكوّرًا قبضة يده، مقاومًا رغبة مُلحّة في عناقها ومسح دموعها بأطراف أصابعه. ردد بعد دقيقتان متسرسلًا وهو يوليها ظهره كي لا يفلت زمامه:

- عندما وصلت أنا والرجل للغابة رأيت تلك المرأة بجانب الجثة، قبضت عليها ممسكًا بذراعها لتقف أمامي، كُنتُ على وشك نزع لثام

www.secretsofstories.com

وجهها لأكشف عنها ولكن عند رؤيتي لكِ انشغلتُ عنها فهربت فور مجيئك .. ثم استطرد قائلًا بنبرة ذات مغزى وهو يرمقها بجانب عيناه البُنيّة من فوق كتفه القوى:

- ليس لي صلة بها أبدًا كما زعمتِ منذُ قليل

ابتسمت وسط دموعها التي تغطي وجهها كالصغار عندما يجلبون لهم لُعبة بعد رفض طويل، رددت بنبرة صادقة:

- آسفة على ما ظننت بك، ولكن الشيطان عبث برأسي، سامحني أرجوك

التفت لها ثم قال بحزن مصطنع:

- حسنًا

بكت ثانية فأردفت برجاء من وسط دموعها:

- أرجوك سامحني، أنا لا أريد إحزانك في يوم كهذا ولا أريد إحزانك طيلة أيامنا القادمة

شعر بالذنب لأنه عبث بمشاعرها فقال بتوسل:

- أرجوكِ لا تبكي، كُنتُ أمزح معكِ، لقد سامحتك صدقيني فأي شخص بدلًا منكِ كان سيظن ذلك أيضًا

مسحت دموعها بظهر كفها الأفقع لتقول بابتسامة واسعة:

- حسنًا لن أبكي مرة ثانية

- تقصدين ثالثة

قالها بابتسامة مرحة فضحكت بقوة لتقول:

- يجب أن تعتاد ذلك فأنا دموعي دائمًا قريبة، في الأفراح والأحزان

كاد أن يقول لها أن رقتها تلك مَن أوقعته في شباكها، ولكن ردد بدلًا من ذلك بامتنان حقيقي:

- شكرًا لكِ، لأنكِ لم تخبرين أحد عن تلك المرأة، كان لم يصدقني أحد أنه ليس لي صلة بها وخاصةً أخيكِ "أرقم"

- أنا لم أبح بذلك خصيصًا لأجل "أرقم" .. ثم استطردت تقول بحزن وهي تنظر أرضًا عابثة بأصابع يدها النحيلة:

- لا أعرف سر البغضاء الذي يكنّها لك

- ليس مهمًا، مع الوقت ستزول لا تقلقي

قالها بابتسامة بسيطة فبادلته إياها بأخرى رقيقة مشرقة. سألها في حرج:

- أيمكنني أن أطلب منكِ طلب صغير؟!

- بالتأكيد

قال في تردد:

- أتمنى أن أراكِ اليوم في عقد قراننا بوشاح الرأس، لا أريد أن تظهر قطعة من جسدك أو خصلة من شعرك على الرجال حتى ولو بحجم عقلة الإصبع

صمتت لدقيقتان فأبصر رفضها. قالت بجدية وقد حادت عن موضوع الوشاح:

- اليوم سيتم عقد قراننا يا "سُليمان"، سيربطنا رباط مهم جدًا لحين موت أحدنا، سنتشارك الحياة ومنزل واحد وغرفة واحدة ووسادة واحدة، لا أريد أن تخفي عني شيئًا مهما كان، عدني بذلك

صمت لبرهة يراجع ما في ذهنه من خطط وعقبات تقف في طريق ذلك الوعد. في ذات الوقت تذكر قراره أمس بأن يخبرها كل شئ يضمره في نفسه ولكن بعد عقد قرانهما فردد بصدق:

- أعدك.

***

(٢)

الساعة السادسة صباحًا "أي بعد اكتشاف الجثة بأربع ساعات.."

جال رَدهة القصر ذهابًا وإيابًا كالمجذوب، يكاد رأسه ينفجر من فرط التفكير بذلك الذي يلعب معه الغُمّيضة متحديًا إياه بكل وقاحة. اعترف بينه وبين حاله أن ذاك الشخص جسور مغوار، فمن يقدر على محاربة الأسد حتى وإن كان من ظهره يُعد شجاعًا فبالتأكيد إحدى ضرباته ستهزم الأسد فيصير فريسة بدلًا من مفترس. ولكنه لن ينتظر إلى أن يصبح فريسة سيهجم قبل أن تصيبه إحدى ضرباته النافذة.

كان "سُليمان" يقف أقصى يمينه واضعًا يده خلف ظهره، مقتضب الملامح بينما "أرقم" و"أمير" يجلسان فوق مقعدين متجاورين خلفه تمامًا. قاطع تفكيره في الأمر دخول أحد الحرّاس الذي دفن الجثة أسفل التراب كمن سبقتها، رَدهة القصر مما جعله يثبت موضعه ويكُف عن الجَوْل. قال الحارس الذي بات يقف قبالته تمامًا، باسطًا يده تجاهه:

- وجدنا هذا في الغابة "بكري" صَيدَن

انتبه للأمر ، بينما اقترب "بكري" من الحارس الذي يقف على بُعد ثلاث خطوات منه ثم ضيق عيناه وهو ينظر لكف يده المفرود أمامه.

تسائل بدهشة وهو يتلقفه من يده وإبتسامة النصر بدأت تشق وجهه:

- أين وجدتموه تحديدًا؟!

جاوبه الحارس ببساطة:

- محيط الجثة "بكري" صَيدَن"، بعدما أشرقت الشمس وضحت رؤيته مندسًا بين أوراق الشجر المتساقطة فوق أرضية الغابة

اتسعت ابتسامته بينما أضاف الحارس:

- يقول أحد الحرّاس أنه يشبه غِمْد خنجر فتاة بقرية روماف، قد اشتعلت بينها وبين الحارس الذي قُتل منذُ قليل نقاش حاد وسط السوق التجاري بعدما تحرّش بإحدى الفتيات هناك

غِمْد الخنجر: جيب أو جراب أو غلاف يحيط ويحمل سيفًا ، أو خنجرًا ، أو سكينًا ، أو غيرها من الشفرات الحادة الكبيرة.

اندفع الأدرينالين بجسد "أرقم" الذي نهض من مقعده قائلًا بلهجة آمرة وقد وقف بجانب والده:

- اجلب هذا الحارس إلى هنا فورًا، هيّا

www.secretsofstories.com

ذهب الحارس بسرعة البرق كي يستدعي رفيقه في المهنة بينما زعق بالأخر والده:

- مَن أعطاك الإذن لتتدخل يا "أرقم"!! ألا تراني واقفًا أحل الأمر أم عميت عيناك!!

كان "أمير" في الخلفية يستمتع بمشاهدة هذا العرض وعلى ثغره ابتسامة واسعة وكأنه يستمع لدعابةٍ ما وليس شجار بين أخيه وأبيه.

قال "أرقم" بحزن:

- أنا أساعدك يا أبي ليس إلا، لِما دائمًا تنهرني وتحرجني رغم أنني ولدك ولي حق في ذلك؟!

قال "بكري" بصرامة:

- أخيك الأكبر هو الوحيد مَن له الحق في التدخل، فهو والي قرية وسيصبح قريبًا عاهل المنطقة كلها، أما أنت لا يُسمح لك بالتحدث إلا عندما أسمح لك أنا بذلك، أفهمت؟!

ظهرت دموع القهر في عيناه فانسحب سريعًا من الموقف بينما كانت "ميسم" تراقبهم من خلف أحد الأعمدة وقد بكى قلبها قبل عيناها حُرقةً على ولدها الذي انكسر خاطره الآن.

ظهر الحارس الذي رحل منذُ لحظات مرة أخرى وقد لحق به حارس أخر.. كان رفيق للحارس الذي أضحى جثة منذُ ساعات، يوم شجاره مع "عَنُود."

سأله "بكري" مضيقًا عيناه بعدما وقف قبالته:

- أهذا الكلام صحيح، الحارس صاحب الجثة تشاجر مع فتاة في السوق برومان ذات خنجر له غِمْد كهذا؟؟

أنهى جملته وهو يضع ما وجدوه في الغابة بين أوراق الشجر المستقرة أرضًا، نصب عيناه. جاوبه الحارس في قلق:

- نـ..نعم نعم، "بكري" صَيدَن يشبهه إلى حد كبير، من الممكن أن يكون هو نفسه حتى

لمعت عيناه بوميض الانتصار ثم قال بلهجة غامضة جافة وهو يرسم بذهنه خيوطًا شبكية تقع فيها هذه الفتاة:

- لا تخبروا أي أحد في البلدة بأننا اكتشفنا هذا الخيط، وكأننا لم نجد ذاك الغِمْد أبدًا وما زلنا نبحث عن الداني، وبالتأكيد هي ستأتي ثانية لتبحث عنه وحينها ستقع في شباكنا نحن

أطاعه الجميع في صمت بينما همس هو وقد برقت عيناه بنظرات مرعبة:

- لنرى إلى أي مدى تصل شجاعتكِ أيتها المحاربة الفِرناسة.

www.secretsofstories.com

(٣)

خرج أربعتهم من صحراء آياز الساحرة بأربعة من الإبل المحمّلين بالأمتعة من الطعام، والشراب، ومستلزمات الحفل، تاركين سلام لن يتكرر متجهين حيثُ القطعة المتشحة بكل رَوْع.. - ديلماف- .

رافقهما الشيخ حتى إن انشغل "حَمَد" عن إبنته يكن هو بجانبها. رافقهما أيضًا إبن الخالة "زينب" كي يرشدهم لطريق البلدة، ويساعد "رُواء" في تقديم طعام الحفل، ويطلعها على عادات وتقاليد أصحاب ذاك القصر، حيثُ أنه كان يأتي دائمًا إلى هنا مع والدته؛ لمساعدتها في تقديم الطعام الذي تطهيه "رُواء" بيديها وتوزيعه على ضيوف الحفل .

لم تروق البلدة لكلٍ من "حَمَد" والشيخ، كل خطوة يخطوها الإبل داخلها يقارنون ملامحها بـ"آياز" وسحرها.. فتضحى "ديلماف" خاسرة خسارة منكرة. على عكس "رُواء" التي انبهرت بتلك البلدة العريقة الكبيرة التي لا تضاهيها آياز في مساحتها. لقد فقدت هذه البلدة بريقها عن السنون الماضية بسبب الأرض التي ارتوت بدماء الأبرياء، والسماء التي تلقفت دعوات المظلومين.. كانت كقطعة ماسية فريدة مُطعمة بحجر الفيروز أمست قطعة حديدية يملأها الصدأ، مغطاة بقشرة ذهبية.

علّق "حَمَد" الذي كان يضع فوق وجهه أطراف عمامته الخضراء لتحميه من آشعة شمس ديلماف الحارقة، متطلعًا يمينًا ويسارًا بفضول، وقد وطأت أقدام الإبل شوارع ديلماف التي تضج بالفلاحين، والبائعين، والأطفال:

- لا أعلم لِما يرافقني شعور الاختناق منذُ دخولنا أرض هذه البلدة

رددت زوجته ذات البطن المنتفخ من داخل الهودج المغطى بستائر بيضاء شفافة، المستقر فوق ظهر الجمل الذي يجاور جمل زوجها:

- لأنك لأول مرة يا "حَمَد" تترك آياز، يبدو أنك اشتقتُ إليها

ردد الشيخ ببعضِ ضيق وهو ينظر لإبن الخالة "زينب" من فوق جمله:

- كانت أمك يا ولدي تسرد لي حكايات عن ديلماف هذه، وتخبرني عن مدى جمالها وكأنها قطعة من الجنة، لماذا لا أرى أي شئ مما كانت تحكي!!

جاوبه الصبي وهو يمسك بأطراف لجام الجمل الذي يحمل فوق ظهره الكثير، يجرّه خلفه:

- قلّ الخير بها يا شيخ، منذُ وفاة والد حاكمها الحالي حلّ الظلام عليها وانطفأ بريقها

همس الشيخ معلّقًا بحزن:

- يبدو أن هذه الأرض تفتقر للعدالة

www.secretsofstories.com

هتفت "رُواء" بمرح من خلف الستائر الشفافة:

- قالت لي الخالة "زينب" ذات مرة يا "حَمَد" أن هناك قرية تسمى روماف تابعة لديلماف ولكنها تفوقها جمالًا، بها شلالات مياه أخاذة تنتهي بنهرٍ جاري مياهه فيروزية تخالط الأزرق .. ثم استطردت تقول بتوسل:

- أريد أن أزورها في طريق العودة أرجوك

قال "حَمَد" موجهًا نظره إليها وهو يضيق عيناه بسبب آشعة الشمس التي تطلّ فوق رأسه كعمامته:

- سنعود في الليل يا "رُواء" كيف سنراها!! ثم أخشى أن يأتيكِ المخاض في أية لحظة

أردفت برجاء:

- أرجوك "حَمَد" الطريق من هنا لروماف حوالي ساعتين كما أخبرتني الخالة "زينب"، سنخيم هنا طيلة الليل ثم نذهب مع نور الفجر إلى هناك

وضعت "رُواء" يدها فوق بطنها المنتفخ متابعة حديثها بفخر:

- ولا تقلق ولدي قويّ كوالده سيتحمّل، ثم لي رغبة شديدة في رؤيتها ..

غمزت بطرف عيناها بشقاوة ثم أكملت:

- يبدو أن ولدك أيضًا يريد رؤيتها

قال باستسلام فهو لا يقدر على رفض طلب لها:

- حسنًا يا أميرتي، كما تريدين

تهللت أساريرها بينما ابتسم الشيخ مرددًا بسخرية:

- كان الله في عونك يا بنيّ، تستغل ولدك لنيل رغباتها وأنت بالطبع لا تستطيع رفض أي شئ يخص ولدك

جحظت عيناها لا تصدق ما يقوله والدها عنها في حين ردد "حَمَد" بنبرة صادقة مليئة بالحُب:

- ليس ولدي فحسب يا شيخ، أنا أيضًا لا أستطيع رفض أي طلب لها

اتسعت ابتسامتها عندما سمعت ردّ زوجها الذي عزز من كبريائها كأنثى أمام والدها بينما هتف الصبي وهو يشير أمامه لطريق طويل ممتد ينتهي بقصر مهيب:

- لقد وصلنا، ها هو قصر "بكري" صَيدَن حاكم بلدة ديلماف

أطلّت "رُواء" برأسها من داخل الهودج ليفغر فمها بإنبهار من شدة جمال هذا القصر، بينما أصيب زوجها بدوّار خفيف وقد اختلطت عليه ذكرياته في ذهنه بعدما سمع الإسم. لم يشعر أيًا منهم بما يحدث له بسبب تمعنهم الشديد بهيكل القصر الخارجي المكوّن من الرخام الأبيض.

www.secretsofstories.com

شعر "حَمَد" بألم حاد في رأسه فأغمض عيناه من شدته، انتبهت "رُواء" لِما يحدث لزوجها فرددت بقلق:

- ماذا بك يا "حَمَد"؟!

- لا شئ "رُواء" لا شئ، فقط ألم حاد برأسي يبدو أن تعب السفر قد تمكّن مني

قالها مسرعًا كي لا يتسبب بذعر لزوجته الحامل. أضاف برجاء بعدما لاحظ صمتها وقد بدأت دموعها تظهر في عيناها:

- لا تبكي يا "رُواء" من أجل ولدنا، إنه مجرد ألم بسيط سينتهي صدقيني بمجرد أن أستريح في تلك الغابة تحت إحدى شجراتها

أنهى جملته وهو يشير للغابة التي تحيط القصر فهزّت هي رأسها في صمت. قال الشيخ ليزيد اطمئنانها:

- سأذهب معه يا بُنيتي، لا تقلقي

- حسنًا يا أبي

قالتها في خضوع وقبل أن تدلف للقصر بعدما أنزلها "حَمَد" من فوق الجمل، ردد بهمس لا يسمعه غيرها:

- كوني بخير من أجل ولدنا يا "رُواء"، لا ترهقي حالك

أومأت له برأسها في إيجاب ثم ارتمت بأحضانه لتستمد منه القوة فأشدد عليها بكل قوته.. كاد أن يدخلها بين ضلوعه. ودّعته على أعتاب

البوابة الخارجية التي تحمي بوابة القصر واعدة إياه بأن تحمي ولده وحالها، وألا ترهق ذاتها في الأعمال. رافقه الشيخ تاركًا "رُواء" ترافق الصبي لداخل القصر في ظل قلقها على زوجها.

لم تخفَ علامات الإنبهار من على وجهها منذُ وطأت قدماها أرض القصر المصقولة اللامعة، استقرت في الرَدهة هي والصبي تنتظر قدوم كنداكة القصر بينما أدخل الحرّاس ما جلبته معها من مستلزمات لحفل المساء. لمحا سيدة راقية تقترب باتجاههما فتأهبت "رُواء" للموقف..

- أهلًا بك يا صبي، لقد كبرت كثيرًا عن ذي قبل

قالتها "ميسم" بعدما وقفت قبالتهم وعلى ثغرها ابتسامة واسعة حيثُ أنها تعلم أنه إبن الخالة "زينب".. فلقد أتى معها كثيرًا من قبل. همس الصبي لـ "رُواء" بأنها كنداكة القصر فأسرعت تنحني احترامًا لها، أمسكت "ميسم" بكتفاها مسرعة تمنعها من ذلك وهي تردد:

- لا تفعلي، أنتِ حامل وأنا لا أحب هذه الأشياء من الأساس

ابتسمت "رُواء" وقد راقت لها هذه السيدة المتواضعة كثيرًا. تسائلت "ميسم" في دهشة:

- أين الخالة "زينب"، لِما لم تأتِ معكما؟!

- أبي مريض فأتت "رُواء" معي بدلًا منها هذه المرة، لأنها تجالسه

www.secretsofstories.com

قالها الصبي بابتسامة بسيطة فهتفت "ميسم" بإنبهار:

- "رُواء" الفتاة التي تطهي طعام احتفالاتنا كل مرة!!

هزّ الفتى رأسه إيجابًا، فأردفت "ميسم" بفرحة طاغية:

- لقد كُنتُ أريد مقابلتك بشدة يا "رُواء"، طعامك رائع والخالة "زينب" محظوظة بالعمل معكِ، تعرفين كلما سألني أحد على طاهي طعام احتفالاتنا أخبرهم عنكِ والخالة "زينب" دون تردد مع المزيد من المدح في معاملاتكما ليستدعونكم هم أيضًا

أطرقت "رُواء" برأسها خجلًا شاكرة ربها في طياتها على تلك السيرة الطيبة التي اكتسبتها قبل موتها. شكرتها بامتنان:

- شكرًا لكِ، هذا الحديث أنساني مشقة الطريق

- "ميسم!!"

أجفل ثلاثتهم نبرة رجولية جشّة جاءت من خلف "ميسم"، همس الصبي في أذنها هذه المرة بأنه حاكم ديلماف برمتها أي زوج تلك السيدة الراقية. استأذنت "ميسم" من "رُواء" ثم سارت خلف زوجها إلى أن وصلا قاعة الإجتماعات..

- أغلقي الباب يجب أن نتحدث قليلًا

أمرها باقتضاب وهو يوليها ظهره كأنها إحدى خدمه. علمت أنه يريد التساؤل عن تجاهلها له طيلة اليوم فأبت بصمود:

- لا لن أتحدث اليوم بأي شئ

جحظت عيناه فاستدار لها بوجهه قائلًا بغضب:

- أجننتِ يا "ميسم" أم ماذا؟! تعارضين أوامري!!

- يا ليتني جننتُ قبل فوات الأوان، اليوم لن أتحدث معك بأي شئ لأنه يوم مهم بالنسبة لإبنتنا ولا أريد إفساده عليها

تراجع عما في جوفه بعدما أدرك مدى صحة كلامها فهو أيضًا لا يريد ذلك.. "أفنان" أهم بالنسبة إليه من أي حديث أخر.

ردد بثبات:

- دعينا من أمر التحدث الآن، ولكن لِما جلبتِ تلك الطاهية من آياز بلدة عدونا اللدود إلى هنا مرة أخرى رغم رفضي لهذا الأمر مسبقًا؟!

- أنت تعرف جيدًا أنه لا يمر احتفال بالقصر دونها، فأنا لا أثق إلا ببراعتها

جاوبته باقتضاب ثم أضافت:

- ثم لا دخل لعملك بهذا الأمر

قال بغضب مكتوم وقد تكتلت في ذهنه ذكريات قديمة:

- من الممكن أن يجعلها تسمم طعامنا ليتخلص منّا في غمضة عين وأنتِ تقولين بكل بساطة لا دخل لعملك بهذا الأمر!! تعرفين جيدًا أنه يغار مني!!

www.secretsofstories.com

ارتفعت زاوية فمها في سخرية لا تمت للمرح بصلة ثم رددت:

- لا أعتقد أن هناك أخ في هذا العَالَم يغار من أخيه ويرغب في قتله هو وعائلته كما زعمت .. ثم استطردت مضيفة بنبرة ذات مغزى:

- فهو ليس بهذا الحقد، على الأقل لقد قبل دعوتي بصدر رحب لحفل إبنة أخيه رغم خلافاتكما سويًا

اكتفت بهذه الجملة. كان لسانها يود إخباره بأنه الأخ العاق والحقود، فهو دائمًا ما يرسل الغارات على بلدة أخيه بينما لا يردّ أخيه سوى بالصمت وكأن شيئًا لم يكن.

- ماذا!! دعتيه للحفل دون إذني ؟!

قالها في صدمة جلية فرددت بهدوء جعله يشتعل غيظًا:

- إن كُنت تريد إثبات نيتك الصافية تجاهه أمام الناس يجب عليك أن تستقبله بحفاوة في الحفل، فالناس لا تردد سوى الحديث عن مدى أنانيتك مع أخيك بعد وفاة والدكما، عليك أن تغير اعتقادهم بشأنك

أردفت بخوف زائف مصطنع:

- أنا أفكر بك وبصورتك قبل أي شئ

اقتنع بما قالت نوعًا ما فصمت عن المعاتبة، بينما هي سحبت نفسها من الغرفة مرتسمة على شفتيها ابتسامة النصر.. النصر على ذاتها التي هلكها الخَرَع.

(٤)

كلما رأته في محيط بيتهم، أو يجاورهم حول الطعام، أو يرافق جدها بأرضهم التي تقع خلف منزلهم، تهيج الدماء في عروقها. تراه من أبناء البلدة الذين تسببوا في موت والدها وأخيها بسبب صمتهم عن الظلم وخضوعهم التام لقرارات السُلطة.

تتجاهله وكأنه حشرة ليس إلا وهذا أكثر ما يثير حنقه، يحاول أحيانًا إغاظتها بالكلام كي تنفعل فتجادله؛ ولكن لا تفعل. ما أصابها بالجنون أنه حتى لم يبرر لها سبب تراجعه عن حماية الفتاة من بطش هؤلاء، فأصبحت تنعته بالجبان الوقح.. فهو لم يخجل من فعلته أبدًا.

جلست أمام منزلهم تمسد شعر دهب الأسود المسترسل على جسدها؛ حيثُ أنها قد اشتاقت لرحلاتهما سويًا، فلمحها هو عندما عاد للمنزل كي يأخذ بعض الماء لجدها الذي ينتظره بأرضهم الزراعية. اقترب منها تاركًا بينهما مسافة متر ثم قال بمشاغبة:

- كيف حالك يا دهب؟! أردتُ الاطمئنان عليكِ لا أكثر

لم تنظر ناحيته، تجاهلته ككل مرة ولكنه أردف:

- أعرف أنكِ تشعرين بالملل بسبب مكوثك في المنزل طيلة اليوم، ولكن لا تقلقي الخالة "هاجر" سمحت لكِ بالخروج أخيرًا لقد تحدثتُ معها

تهللت أساريرها فهبّت واقفة تسأله:

- حقًا!! أمي وافقت على خروجي بـ دهب؟!

لم يجاوبها وانشغل بجلب الماء من البئر الذي يجاورها، فقالت بنبرة حادة وهي تضع يديها في خصرها بتبرم:

- أنا أتحدث معك بالمناسبة، جاوبني يا "عزّ الدين"

انتبه بحواسه لها دون أن ينظر إليها؛ فقلبه بصير بها وهذا يكفي، توقف عن جلب الماء وقد ترك الجرة الفخارية من يده. أول مرة لا تنعته بـ أبو الدهاء وقد راق له هذا كثيرًا، لنطقها إسمه وقع عليه وكأنها قالت شيئًا كقبلتُ زواجَك يا "عزّ الدين" ويا ليتها تنطقها حينما يحين وقتها.

عقدت حاجبيها في دهشة من صمته المريب فأعادت على مسامعه:

- قولت لك جاوبني، لِما تسمرت هكذا؟!

ردّ ببرود كي يشعل غيظها وقد عاد لملء الماء من جديد:

- كُنتُ أتحدث مع دهب ما شأنك أنتِ!!

- آه لقد نسيت فأنتما الإثنان من نفس الفصيلة، أعذرني

فغر فاهه، ظنّ أنه يردّ لها الصاع صاعين بسبب تجاهلها له طيلة اليومين الماضيين، ولكنها فاجأته بلسانها السليط. حمل الجرة وكاد أن يذهب فأوقفته بسؤالها:

- لِما لم تنقذ الفتاة ذلك اليوم!!

لمس رغبتها الشديدة في معرفة الإجابة بنبرتها الهادئة، فجاوبها بسخرية:

- لقد كُنتُ خائف منكِ عندما أشهرتِ خنجركِ في وجهي، كيف لا أخاف من هؤلاء الحرّاس

وقفت قبالته وواجهته بعيناها السوداوان في تحدٍ:

- أنت تتلبس قناع تلك الشخصية الضعيفة، تخفي وراء هذا الضعف قوة هائلة، يخبرني قلبي بذلك، فقوتك البدنية وحدها تكفي لإسقاطهم جميعًا أرضًا في لحظة واحدة

نظر بعيدًا في صمت، لم يجيبها ولم ينفي حديثها أيضًا فابتسمت لتردد:

- لا أحتاج لإجابتك، صمتك يكفي

صدح صوت صهيل حصانه الذي يجاور غرفته في الأرجاء، فابتعد عنها ليفحص أمره بينما هي ظلت تتأمله وقد لاحت ابتسامة شغف على شفتيها.

رددت بتساؤل، وقد كست نبرتها الجدية قبل أن يرحل ثانية:

- لا أريد تعطيلك عن عملك، ولكن ألم ترى غِمد خنجري، هو فضي اللون ولا أجده منذُ الصباح؟!

www.secretsofstories.com

- لا لم تلمحه عيناى، ابحثي جيدًا في المنزل، وأنا سأبحث عنه أيضًا عند مجيئي للمنزل مساءً بعد انتهاء العمل

جاوبها بابتسامة بسيطة فبادلته إياها قبل أن يوليها ظهره ويرحل. تناست أمر فقدان غِمد خنجرها وهي تتأمل ظهره بابتسامة حالمة، بالتأكيد شهم مثله في أبسط الأشياء لا يكون فاقد للمروءة بأعظمها.

***

(٥)

وجدته كما توقعت جالسًا أمام البِركة التي تقع أقصى يمين حديقة القصر بعدما بحثت عنه في أرجاء القصر كله كي لا تتركه يواجه كآبته وحيدًا، أبصرته مغتمًا محبطًا كطفل عاقبه المُعلّم على عدم فهمه للدرس في ظل شرحه السئ ومعاملته الفظة. اقتربت منه محاولة رسم ابتسامة على شفتيها رغم الألم الذي يسكنها من أجله.. فما أقسى شعور النفور!!

- تترك شقيقتك وحدها في يوم كهذا، لتجلس أمام تلك البِركة!!

قالتها بعتاب مصطنع وقد جلست على الحجر بجانبه. ردد بدهشة:

- من أين عرفتِ بمكاني يا أمي؟!

جاوبته:

- أنا أمك وأكثر شخص على علم بخفاياك، كيف تسألني سؤال كهذا!!

ابتسم بوهن ثم قال وهو ينظر للبركة أمامه:

- ما زلتِ تتذكرين مكاني المفضل منذُ الطفولة!!

- ولن أنسى يا بنيّ

قالتها بابتسامة حانية وهي تمسد ذراعه القوي، بادلها الإبتسامة ثم عاد لصمته وتأمله لمياه البِركة الراكدة فبادرت هي:

- أحزن لرؤيتك هكذا يا "أرقم"، أخبرني سبب حزنك هذا يا بنيّ

ترقرت عيناه بالدموع وهو يردد بصوت متحشرج:

- أشعر أن أبي ينفر مني يا أمي على عكس "أفنان" وأخي "أمير"

أدارته ناحيتها لتقول بكذب محاولة دحض التبرير وهي تمسح عَبَراته بأناملها:

- هذا غير صحيح فأنت ولده مثلهما تمامًا، أنا صراحةً مَن طلبت منه ألا يدخلك في قرارات العمل نهائيًا تكفي مشاركتك إسمًا يا بنيّ

قال بدهشة:

- لِما يا أمي؟!

- لأنني لا أريدك أن تُقحم نفسك في هذا الوحل، ترى بنفسك جثث الحرّاس التي تسقط الواحدة إثر الأخرى، أخاف عليك يا ولدي

www.secretsofstories.com

قالتها مندفعة كي يقتنع بما حبكت. أردفت:

- أنت ترى أخيك "أمير" يتدخل بالأمر أم تاركًا أبيك يتصرف به؟!

جاوبها بتراجع عن اندفاعه لفعلتها التي لم تحدث من الأساس:

- لا يتدخل البتة

- إذن أنت أيضًا لا تتدخل

كان إقحامها أخيه "أمير" في الأمر - مثله الأعلى- ، حركة تثبت مدى ذكائها وتمكنها من التأثير على رأيه. ردد بإحباط:

- لن أتدخل يا أمي، ولكن أبي ينهرني كلما تحدثت أو يتجاهل رأيي، وهو لا يفعل ذلك مع أخي "أمير" البتة، إذن لِما أنا بالذات؟!

ابتسمت وهي تجيبه:

- أبيك سيعتذر لك عن ذلك أثق به، ولكن عليك يا ولدي أن تقدّر كم المصائب التي وقعت فوق رأسه الفترة الماضية فتبرر له غضبه الدائم

- معك حق يا أمي، أمر جثث الحرّاس هذا مريب جدًا

قالها بخجل وهو يطرق برأسه أرضًا فربتت على كتفه بحنو أمومي.

ردد هو بقلق حقيقي:

- سأذهب لأخي "أمير" بالتأكيد هلكَ من البحث عني في القصر كله وقلق علىّ كثيرًا

هزّت رأسها في صمت مغتصبة ابتسامة بينما ذهب هو تاركًا إياها تنظر في آثاره بلوعة. ولدها أحيانًا يعميه الغضب، تتملكه العجرفة، يوسوس له الشيطان بأفعال مشينة؛ لكنه يظلّ إبن والده والعرق دسّاس، وهذا بالطبع لا ينفي معاملته الحانية معها ومع باقي العائلة.

رددت داخلها بندم:

- سامحني يا "أرقم"، أعلّمك دائمًا قول الصدق ولو على رقبتك سيفًا بينما كذبتُ أنا عليك اليوم، ولكن لا أريد أن تتكرر انقسامات أخرى كالتي بين أبيك وعمك بسبب كرسي السُلطة اللعين.

***

(٦)

وقفت قبالته بثبات وثقة غير معهودانِ عليها داخل إحدى أجنحة القصر الخاصة بالضيوف القادمين من الخارج أي بعيدًا عن الأنظار، اندهش كثيرًا من رغبتها الشديدة في مقابلته بعدما جعلت أحد الحرّاس يدعوه لهذا الجناح مخبرًا إياه بأوامرها.

منذُ دلوفه الغرفة لم يتخلى عن ابتسامته المستفزة التي تزين ثغره، ظلّا دقائق معدودة يتبادلان نظرات صامتة في طياتها الكثير من

www.secretsofstories.com

التساؤلات والغموض إلى أن قطع الصمت هو، متسائلًا بخيلاء ممزوج ببعضِ برود بعدما جلس على طرف الفراش واضعًا ساق فوق أخرى:

- ماذا تريدين مني يا حضرة الكنداكة، أقررتِ عقد معاهدة صلح معي؟!

رددت باقتضاب:

- أنا وأنت يا "أمير" نعلم جيدًا أنني لا أضمر لك في نفسي أية كراهية، وما تضعه في رأسك من نسج خيالك ليس إلا، أنا لم أؤذيك في شئ منذُ دخولي هذا القصر بل بالعكس أنت مَن أذيتني

قفز من موضعه كالمسحور ثم هدر بهياج عنيف أمام وجهها:

- سرقتِ مني أمي أولًا، وأبي ثانيًا، ومنزلي ثالثًا، وتقولين بكل وقاحة أنكِ لم تؤذيني في شئ

- أنا لم أقتل أمك، أمك قتلت نفسها بنفسها

صرخت. ردد بحدة تخللتها دموعه فخرجت نبرته متحشرجة:

- قتلت نفسها من قهرتها على حالها، لم تتخيل أن تأتي زوجة أخرى لأبي بعد سنين عنايتها واهتمامها به وبشئونه

- ولِما لم تعاتب أبيك!! هو مَن طلبني للزواج بملء إرادته لستُ أنا مَن خربت حياة الأسرة السعيدة، بل أبيك مَن فعل

أجفله سؤالها وألجم لسانه، هربت الكلمات منه في الحال. هناك جزء في أعماق روحه اعترف بأن أبيه المسؤول عن موت والدته ولكنه أبى الاستماع له فردد بإصرار:

- ستظلين في نظري يا "ميسم" المسؤولة عن موت أمي مدى الحياة لذا سأظل أعاقبكِ إلى أن يحين موتي، سأسرق سعادة أولادك أغلى شئ على قلبك

أدار لها ظهره زاعمًا الرحيل فأدارته لها مرة أخرى وهي تهتف بصراخ جنوني:

- لم تحزر يا "أمير"، ان اقتربت من أطفالي سأبيدك بيدي دون تردد، يكفي ما فعلته لي في الماضي، لقد سرقت مني طفلان من قبل

ارتفعت زاوية فمه بسخرية من تهديدها قائلًا:

- ماذا!! هل القطة مغمضة العين ظهرت لها مخالب الآن أم يتهيئ لي ذلك؟!

- هذه القطة ستغرز مخالبها في جسدك لتفرغه مما فيه إن اقتربت من أطفالها، هذه القطة لم تعد كما كانت من قبل، هزيلة وضعيفة

همس بفحيح أفعى أمام وجهها مباشرةً:

- اهدئي يا "ميسم" فلقد تم الأمر منذُ زمن وانتهى، إبنتك تتزوج اليوم من رجل حقير وولدك لا يطيق أبي مشورته أو التحدث معه، ماذا سأريد

غير ذلك لقد تحققت كل أحلامي

اقترب منها ثم همس في أذناها:

- ولكن تعرفين خصلة الطمع مندسة بعِرق عائلة زوجك، لن أكتفي بذلك القدر سأقتل ولدك بيداي لأحرمك لذة الحياة التي حرمتيني منها

نظرت له بفم فاغر بينما ترقرت عيناها بالعَبَرات، جلست أرضًا في استسلام وقد بلغ منها الهزل مبلغه فلم تعد قدماها قادرة على تحملّها، لقد خسرت للتو ذاك الحديث التي كانت تظن أن بانتهائه سيزول الخطر عن أطفالها. رحل "أمير" تاركًا إياها في حالة صدمة، راسمًا على ثغره ابتسامة الانتصار على ألد أعداءه كما يظن.

****

تجهل كيف قاومت ضعفها ونهضت من فوق الأرضية بالجناح الذي قابلت فيه "أمير"!! كلماته أصابتها بسكتة جسدية مؤقتة شلّت أعضاء جسدها بالكامل إلا عيناها فاضت دمعًا. يجب عليها أن تحارب من أجل أطفالها ولكن كيف؟! مَن سيصدقها عندما تخبرهم بأن "أمير"

أخيهم الأكبر الذي يعتبرونه قدوتهم لا يضمر لهم سوى الحقد والكراهية؟!من الممكن أن ينحر زوجها رقبتها إن فكرت مجرد تفكير في أذيته.. فهو ملاكه الطاهر وكنزه في الحياة.

وصلت غرفتها بأعجوبة كي تبدل ملابسها من أجل عقد قران إبنتها الذي سيكون بعد ساعة من الآن فلمحت مخطوطة ورقية جديدة تنتظرها فوق أرضية شرفتها مرة ثانية، فتحتها في تردد فوجدت ما لم يحمد عقباه.

***

(٧)

احتشد الناس في رَدهة القصر الفسيحة ذات الأرض اللامعة ينتظرون العروس وإشهار عقد قرانها، كانا "ميسم" و"بكري" يستقبلان الضيوف من الأمراء والملوك ماثلين أمام مدخل باب القصر الداخلي.

رغم ما في قلبها من ألم وشجن إلا أنها لم تتخلَ عن ابتسامتها العريضة وهي تحيي ضيوفها.. كما اعتادت منذُ وطأت قدماها هذا القصر اللعين. كان "أمير" يستفزها بنظراته وابتسامته السمجة بين الحين والأخر كي يجعلها تُخطئ أمام والده فيهينها في الحفل كما فعل من قبل من أجله ولكنها لم تنزلق في مخططه الدنئ.

www.secretsofstories.com

استقرّ "أرقم" بجوار "أمير" منذُ بداية الحفل مما جعل "ميسم" يتملكها أنين فاتك فولدها ينجرف بسذاجة في حفرة ذلك المختل عقليًا دون أن يدري. دعت ربها في طياتها أن ينقذ ولدها مما هو فيه رغم اخطائه الغارق بها حد أنفه.

قال شقيق زوجها الذي دلف من باب القصر توًا بابتسامة واسعة:

- مبارك لكم، أتمنى لـ "أفنان" زواجًا مباركًا

امتعضت ملامح "بكري" وكاد أن ينصرف ولكنه تذكر حديث "ميسم" عن اعتقاد الناس به فردد على مضض دون أن ينظر له:

- سلمت على مجيئك

رددت "ميسم" بوجه منفرج:

- سعدت لتلبيتك دعوتي، شكرًا على حضورك

- "أفنان" كإبنتي تمامًا، فكيف لا آتي عقد قرانها!!

رد عليها بنبرة صادقة وسط غيظ "بكري" فأسرعت تقول قبل أن تنشب حرب بينهما في يوم كهذا مما يؤدي لإفساد سعادة إبنتها:

- تفضل بالدخول ستأتي "أفنان" حالًا

هزّ رأسه في صمت ثم دلف للداخل بينما رمق "بكري" ظهره في ضيق. كادت أن تطلب منه أن يبتسم قليلًا في وجه أخيه ولكن منعتها تصفيقات المدعوين الحارّة، فلمحت "سُليمان" قد ظهر في منتصف

السُلم بملابس أنيقة بدّلت من شكله التي اعتادت عليه. أشاحت بوجهها بعيدًا عنه ممتعضة مما يحدث حولها، متذكرة حديث "أمير" عنه منذُ قليل؛ فها هو "بكري" يلبي رغبة "أمير" في رؤية "أفنان" بجانب شخص حقير مما يزيده سعادة.

همس "بكري" في أذن زوجته التي تجاوره:

- اذهبي لتحضري "أفنان" حان وقت عقد القران

هزّت برأسها في صمت ثم تسائلت بنبرة خفيضة:

- ألن تأتِ حتى تقدمها لزوجها؟!

- بلى، بالطبع سآتي دقيقتان وسألحق بكِ

أومأت برأسها عدة مرات ثم انسحبت من بين المدعوين لتجلب إبنتها -عروس الليلة- . دلفت غرفة إبنتها فأبصرتها ترتدي ثوب منفوش باللون الزهري مكوّن من عدة طبقات ولكن الطبقة الظاهرية من قماش التُل، ذو أكمام طويلة واسعة تنتهي بسوار ضيق عند المرفق، مرصع ببعض الورود الفيروزية والزهرية عند الخصر وما بعده، وأعلى الذراعان، بينما تخبئ شعرها أسفل وشاح زهري ينسدل على وجهها يغطيه أسفله. اقتربت منها "ميسم" قائلة بدهشة:

- ما هذا يا "أفنان"، تغطين شعرك!!

رددت "أفنان" بنبرة هادئة من أسفل وشاحها:

- لقد طلب مني "سُليمان" فعل هذا وأنا وافقت لأجله

- سأعاتبه بعد الحفل، هيا بنا الآن الضيوف ينتظروا قدومك، صغيرتي

هتف بها "بكري" بعدما لحق بوالدتها ودلف الغرفة فأسرعت تقول:

- لا يا أبي، أنا وافقت بإرادتي هو لا يعرف حتى أنني سأرتديه الآن

تعجبا "ميسم" و"بكري" من قرارها ولكنهم رضخوا لرغبتها فهي حرة مع شريك حياتها. أما "ميسم" فكانت تفكر بشأن هذا الـ"سُليمان" ربما هو ليس سيئًا لهذه الدرجة كما تظن فهو يغار على إبنتها والغيرة نصف حُب بدونها لا يكتمل.

تعلقت بذراعيّ والدها بينما سارت والدتها من خلفها وعلى محياها ابتسامة واسعة لرؤية إبنتها عروس كما كانت تتمنى دائمًا. تعالت تصفيقات المدعوين عندما أطل "بكري" بـ "أفنان"، وقف "سُليمان" أسفل السُلم مشدوهًا من انصياعها له فهو كان يتوقع رفضها لطلبه.. ولكن هذه الفتاة كل مرة تفاجئه بخصلة تجعله يتعلق بها أكثر وأكثر.

اندهش "أرقم" من رؤيتها بهذا الوشاح الذي يغطيها من رأسها لأخمص قدميها، ولكنه فطن أن هذه بالتأكيد رغبة "سُليمان" الذي اتسعت ابتسامته عند رؤيتها هكذا. ضمّ قبضته بقوة كاتمًا غضبه داخله من تحكم هذا الأحمق بشقيقته بينما كان "أمير" في أقصى مراحل

سعادته ظنًا منه أن "أفنان" ستعيش تعاسة للأبد مع هذا الحقير كما ينعته.

سحبتها والدتها لمجالس النساء التي يفصلها عن مجالس الرجال ستار أبيض شفاف، بينما جلس "سُليمان" في مجالس الرجال وقد بدأت مراسم عقد القران. مرّت دقائق معدودة إلى أن أعلنهما الشيخ زوج وزوجة فتعالت زغاريد النساء في الأرجاء، بارك لها الكثير من النساء مقبلين إياها بحرارة فأشارت "ميسم" لـ "رُواء" بأن تُسرِع بتقديم الطعام للمدعوين، وكذلك بالنسبة لـ "سُليمان" عانقه الكثير من الرجال إلا "بكري" وأولاده.

ذهب "سُليمان" باتجاه "بكري" الذي كان يقف بعيدًا هو وأولاده عن حشد المباركين له من حوله، متسائلًا في قلق:

- أهناك مشكلة "بكري" صَيدَن، أشعر أنك منزعج من أمرٍ ما!!

رمقه "أرقم" بغيظ بينما ردد "بكري" باقتضاب:

- نعم يا "سُليمان" هناك أمرٌ ما

ابتلع "سُليمان" ريقه ثم ردد بتساؤل:

- ما هو؟!

- لِما طلبت من "أفنان" أن تغطي جسدها بالكامل؟!

- لأنني لا أحب أن تنكشف ولو عقلة إصبع من زوجتي على الرجال، "بكري" صَيدَن

قالها بثبات وثقة بالغين حد السماء، لم يستطع أيًا منهم التحدث أو الاعتراض فهو الآن صار زوجها يحق له أمرها بأى شئ وما عليها سوى طاعته. ابتسم "سُليمان" بإباء ثم استأذن منهم كي يذهب ليرى زوجته بعيدًا عن تلك الضوضاء..

- أرأيت إلى أي درجة من الوقاحة وصل هذا الحقير يا "أمير!!"

قالها "أرقم" بغيظ وهو يتطلع لظهره الذي يبتعد رويدًا رويدًا عن أجواء الحفل بعدما تركهم والدهم ليهتم بأحد الملوك. ردد "أمير" بخبث:

- تحلى بالصبر يا "أرقم" سننصب له الفخ قريبًا، لا تقلق

- متى أراه خلف القضبان ذليلًا؟!

قالها "أرقم" وهو يصطك على أسنانه بغضب دفين فجاوبه أخيه الأكبر:

- يجب أن نسرع باقتفاء آثاره وبالتأكيد سنكتشف كثير من الأشياء التي يفعلها سرًا من وراء ظهر أبي

- معك حق يا "أمير"

أيده "أرقم" دون اعتراض كالأعمى الذي فقد بصيرته.. وهو فقد بصيرته القلبية فأضحى ساذجًا لا يفرّق بين الحقيقي والزائف.

*****

همس لأحد الفتيات العاملات بالقصر بأن تستدعي زوجته لسطح القصر كي لا يراهم أحد الليلة سوى النجوم. سبقها لأعلى وقد تعلق بصره بمنظر السماء المزروعة بالنجوم والقمر الذي ينيرها، ابتسم ابتسامة حالمة وهو ينظر لأعلى متخيلًا وجهها داخل هالة القمر..

- أتغازل السماء بدلًا مني؟!

قالتها بحزن مصطنع وهي تقف على أعتاب الشرفة، التفت على صوتها العميق الهادئ ليقول بابتسامة واسعة وهو يبسط يده باتجاهها:

- بل أرى وجهكِ داخل هالة القمر

وضعت يدها داخل كفه في خجل فقبض عليها مما جعل القشعريرة تسري في جسدها، وقفت قبالته فرفع الوشاح عن وجهها ببطء ليكشف عن هالة قمر أخرى.

ردد بانبهار متأملًا قسماتها وهو ينظر لعيناها بهيام:

- ما أجملكِ الليلة!!

أطرقت برأسها خجلًا بينما ارتسمت على شفاهها ابتسامة واسعة، رفع وجهها واضعًا يده أسفل ذقنها ليهمس بعشق:

- أحبك ولن أحب سواكِ

كم انتظرت تلك اللحظة التي يفصح فيها عن حبه لها كما فصحت هي لنفسها عن حبها له، اقترب منها ثم طبع قُبلة حانية فوق رأسها ليردد:

- أدامك الله في حياتي يا "أفنان"

همست بنبرة صادقة قبل أن ترتمي بأحضانه:

- وجعلك بجانبي طيلة عمري يا "سُليمان"

أشدد عليها مغمضًا عيناه وقد كانت رأسها فوق قلبه تمامًا بينما تطل النجوم عليهما من أعلى.

***

(٨)

خرجت من الحفل مساءً قبل منتصف الليل هي وإبن الخالة "زينب" بعدما انتهت من تقديم الطعام والحلويات للضيوف، توجهت فورًا حيثُ الغابة لتطمئن على زوجها الذي تآكل قلبها من خوفها عليه طوال فترة مكوثها داخل القصر.

وجدت والدها وزوجها يستلقيان فوق أرض الغابة ومن حولهما الإبل، تقدمت منهما ببطء هي والصبي ثم همست بخفوت وهي تربت على كتف أبيها بحنو:

- أبي، أبي

استجاب أبيها سريعًا لنداءاتها الخافتة فنهض قائلًا بخوف:

- أهناك شئ خطير، ولدك بخير؟!

ابتسمت ثم قالت بنبرة حانية:

- لا تقلق أنا بخير .. ثم استطردت تتسائل بقلق وهي تشير برأسها لـ "حَمَد" النائم:

- ماذا عنه؟! كيف أصبح ألم رأسه الآن!!

طمئنها والدها في ابتسامة بسيطة وهو يمسد ذراعها:

- لا تقلقي يا "رُواء" أصبح بخير تمامًا بعدما تناولنا الطعام واستظلينا أسفل هذه الشجرة، فيبدو أن شمس البلدة أتعبته

وضعت يدها على صدرها الذي كان ينبض بقوة خوفًا عليه، ثم همست بارتياح وهي تغمض عيناها:

- حمدًا لله

- متى أتيتِ يا "رُواء!!"

تسائل "حَمَد" وقد نهض من نومه بعدما أجفلته همساتهما، فابتسمت "رُواء" بحبور وهي تردد:

- لم يمر وقت طويل على وصولي، ربما دقيقتان

نهض من موضعه ليقول وهو يعدل من موضع عمامته:

- إذن هيا بنا نتجه لروماف كي تشاهدي الشلالات مع نور الفجر

اتجه صوب الإبل يهيئهم للرحلة القادمة فهتفت هي معترضة:

- لن نذهب لأي مكان يا "حَمَد"، سنعود لمنزلنا أنت منهك للغاية

عقد حاجبيه في دهشة ليستدير لها بجسده متسائلًا:

- ألم تعلني صباحًا رغبتكِ في رؤية شلالات روماف مع نور الفجر؟!

- بلى، ولكن هذا كان قبل أن يصيبك دوار مفاجئ يا "حَمَد"، سنأتي لزيارته بعد ولادة ولدنا لا مشكلة عندي صدقني

هتف بإصرار:

- لا يا "رُواء" أنا بخير صدقيني، سنذهب إلى هناك الآن وأعدك إن شعرتُ بالتعب سأخبركِ كي نرحل سريعًا

تعرف أنه لن ينصاع لرغبتها فهو عنيد لحد لا يوصف؛ انصاعت هي لرغبته ورغم سعادتها الداخلية بإصراره على ذهابهم إلى هناك كما أرادت، إلا أن انتابها القلق من هذه الرحلة. رجعوا للإبل مرة ثانية ولكن هذه المرة باتجاه القطعة الفيروزية التي تميز - ديلماف- .

****

وصلوا قبيل الفجر الصحراء التي تسبق الشلالات كما أرشدهم الصبي، ابتهجت "رُواء" كثيرًا لأن خطوة واحدة فقط تفصلها عن تلك

القطعة الفيروزية الخلابة. أمسك "حَمَد" بيديها ليساعدها في النزول من الهودج بينما أجلس الصبي الإبل بالقرب من الشلالات.

عانقت خيوط الشمس السماء فالتقطت آذانهم شقشقة العصافير، تعلقت "رُواء" بذراع زوجها بينما تقدمهم الصبي ليرشدهم تاركين الشيخ مع الأمتعة. وقفوا على حافة الانحدار بخوف فأبصرت مظهر الشلالات الأخاذ، اتسعت ابتسامة "حَمَد" عندما رأى السعادة تتلكأ على صفحة وجهها بعد أيام من الوَصَب بسبب حلمه المزعج ولكن لا تدوم تلك اللحظات طويلًا.

تقلصت ملامح "رُواء" فجأة وقد وضعت يدها فوق بطنها المنتفخ، هتف زوجها بخوف:

- ماذا بكِ يا "رُواء"، بما تشعرين!!

رددت من بين أنفاسها المتلاحقة وقد شددت من قبضتها على كفه:

- يبدو أنه ألم المخاض يا "حَمَد"

جحظت عيناه فأسرع بحملها بين ذراعيه ليعود بها عند الأمتعة، تسائل والدها بخوف:

- ماذا بها؟!

ردّ "حَمَد" وهو يتجه بها للهودج مرة أخرى كي تستلقي فيه:

www.secretsofstories.com

- يجب أن نبحث عن قابلة فورًا يا شيخ حان وقت ولادتها وأخشى أن يصيبها شئ هي وولدي

أسرعوا بالسير عودةً من ذات الطريق وسط صرخات "رُواء" وبكائها.. لم تعد تتحمل الألم، بكى "حَمَد" وظلّ يدعو ربه أن يحفظ ولده وامرأته إلى أن يجدوا قابلة في تلك البلدة الغريبة. لمحوا بيت في طريق العودة، وحيد خلفه أرض زراعية فهتف الصبي:

- هيا يا "حَمَد"، اذهب لهذا البيت وأنا سأُنزِل الهودج

هبط "حَمَد" من فوق الجمل مسرعًا دون أن يفكر أو يعترض، ثم اتجه للمنزل الذي يستقر أمامه خيل أبيض ذو شعر أسود كثيف بينما كانت تلاحقه صرخات زوجته في الخواء من حوله. طرق الباب بقوة عدة مرات في سرعة هائلة وكأن أحد السفاحين يلاحقه ففتحت له سيدة في أواخر الأربعينيات وقد تلكأت على صفحة وجهها صدمة جلية. لم ينتبه لمظهرها فجُلّ ما يشغل باله الآن زوجته وولده، هتف بقلق حقيقي وهو يشير للهودج:

- زوجتي، زوجتي على وشك الولادة أرجوكِ ساعديها.

***

(٩)

في طيات الخواء المظلم وسط صحراء ديلماف المروعة المرصعة بالصخور الصلبة والجبال الشاهقة؛ حيثُ لا مكان سوى للذئاب وقطاع الطرق، وقفا قبالة بعضهما البعض فوق صخرة ذهبية عالية.. من فوقهم ضوء القمر، ومن أسفلهم حطب تتخلله النيران..

- مبارك يا أخي "سُليمان" على عقد قرانك

ربت على كتفه بقوة ثم ردد بابتسامة واسعة:

- سلمت يا أخي، العقبى لك يا "عزّ الدين"

- دعواتك يا أخي أن تلين "العَنُود" معي

قالها بسخرية لاحقًا إياها بضحكة قصيرة فردّ "سُليمان" بنبرة مطمئنة:

- لا تقلق ستلين عندما تعلم هويتك الحقيقية

تقلصت ملامح "عزّ الدين" ثم تسائل بوجه مغتم:

- متى يا أخي سيحين موعد القصاص؟! قلبي يحترق شوقًا لرؤية هذا اليوم

وضع "سُليمان" كفه فوق كتفه ثم قال بنبرة عميقة قوية:

- لقد اقترب كثيرًا يا أخي، مع بزوغ شمس يوم العيد ستتحد الأيدي

- أأنت واثق من مساندتهم لنا؟!

تسائل "عزّ الدين" في شك فردد "سُليمان" بثقة:

- سترى، لأول مرة ستشهد ديلماف لحظة عدل .. ثم استطرد يقول بنبرة يكسوها الحزن:

- أعلمت مكان مسكن العم "جميل"؟!

جاوبه بحزن أكبر:

- ليس له مسكن يا أخي، يقول الناس أنه شريد مع ذاك الكلب ولكن كثيرًا ما يحوم حول القصر بالغابة

زاغت عينا "سُليمان" في قلق حقيقي فأضاف "عزّ الدين:"

- أعتقد أنه قد علم هويتك يا أخي بعدما أبصرك تدلف القصر برفقة الحراس ذلك اليوم، وهو لن يبتعد عن القصر إلا عندما تتحدث معه

تملك الرعب من قلبه فقال:

- أخاف أن يقتلوه هؤلاء الأوغاد، لقد أنقذته بأعجوبة المرة الماضية لن أستطيع فعلها ثانية، سيشكّون بأمري

- سنجد حل لا تقلق .. ثم استطرد يقول بنبرة غامضة جافة:

- الآن ما هو الأمر العاجل الذي استدعيتني من أجله إلى هُنا؟!

جاوبه "سُليمان" بجدية:

- لقد وجدوا غِمد خنجر باللون الفضي متساقطًا في الغابة محيط الجثة، وأنا أيضًا رأيتُ امرأة ذلك اليوم بجانب جثة الحارس

عقد "عزّ الدين" حاجبيه في دهشة ثم تسائل ببلاهة:

- وما العلاقة لا أفهم؟!

- لقد سرد أحد الحرّاس مشاجرة "عَنُود" شقيقة "أسد فياض" في السوق مع ذلك الحارس الذي تحرّش بإحدى الفتيات هناك، تلك التي سردتها لي المرة الماضية

فغر فاه "عزّ الدين" بينما أكمل "سُليمان:"

- الحارس ذاك هو مَن وجدوا جثته بالغابة، رفيق هذا الحارس المتحرش قال أن الفتاة التي تشاجر معها في السوق كانت تحمل خنجرًا بنفس لون غِمد الخنجر الذي وجدوه في الغابة وقد أمرهم "بكري" بالتكتم على الأمر

- ماذا؟! تريد قول أن "عَنُود" هي مَن قتلت الحرّاس!!

نطقها "عزّ الدين" مشدوهًا فأردف أخيه:

- بعدما وجدوا هذا الدليل القاطع أجزم أنها هي، فأنت أخبرتني أنها دائمًا ما ترتدي لثام والمرأة التي رأيتها ذلك اليوم بجانب الجثة كانت تضع لثام أيضًا فوق وجهها

www.secretsofstories.com

قال "عزّ الدين" وهو يحرك حدقتاه بصدمة:

- و"عَنُود" صباحًا كانت تبحث عن غِمد خنجرها في المنزل، يبدو أنها تجهل سقوطه منها في الغابة

- ليس هذا المهم الآن، سيقتلها "بكري" يجب أن تسبقه بخطوة

حذره "سُليمان" فقال بأسى:

- ماذا أفعل في تلك الحالة؟! لا يوجد حل سوى الهرب

هتف "سُليمان" سريعًا:

- لا الهرب ليس حلًا، هكذا ستثبت تهمتها أكثر

- ماذا أفعل إذن؟!

سأله بقلق بينما تتجسد أمامه كل الصور البشعة التي ممكن أن يفعلها "بكري" بها. ردد الأخر:

- لا أعرف يا أخي المهم أن تتصرف في الأمر بعقلانية

هزّ "عزّ الدين" رأسه في صمت بينما ربت "سُليمان" على كتفه يؤازره وقد جلسا متجاورين فوق الصخرة. تلكأت صدمة مفضوحة فوق صفحة وجه "أرقم" الذي كان يقف خلف إحدى الصخور بعدما خرج من القصر خلف "سُليمان" كي يراقبه كما أمره "أمير"، مشدوهًا مما يرى..

فبعدما أصبح الشقيقان متجاوران لا متقابلان أبصر وجهيهما المتشابهان لحد كبير. همس في صدمة جلية:

- توأم متماثل!!

الفصل الخامس (الأخير)

(١)

هل يعود الأمل يومًا بعد خراب دام سنواتٍ عجاف؟..!

هل تلتصق قطع البلور المتهشمة ببعضها البعض مرة أخرى؟..!

هل يعود المطر يومًا لأرض بور جافة لا تنتج ثمرة واحدة لسنوات؟..!

هل يعود الميت للحياة ثانيةً بعد بكاء فقدانه أيام وشهور وسنون؟ ..!

نعم يحدث ولكن فقط بالمعجزات.. ولا يوجد سوى الله قادر عليها.

كادت الأرض أن تميد بها وهي تراه يقف أمامها مرة أخرى بعد سنتان من الهروب القسري وعشرِ سنوات موتٌ لا رجعة فيه. أصابها يأسٌ ضاري عندما لمست جهله بها، كيف لم يرتمي بأحضانها كي تبثه شوقها؟! لماذا يبدو كغريب لم يخرج من أحشائها ويستولى على غذائها؟!. فهو لم يقل سوى:

- زوجتي تلد، زوجتي تلد .. وكأنه لم يرى وجهها من قبل قط!!

همست في شجن:

- "أسد!!"

سألها بأعين مليئة بالدموع:

- مَن هو "أسد"!! أخبركِ أن زوجتي تلد لم أنطق بأسد البتة

وقعت عليها نازلة، لقد فقد فلذة كبدها هويته، وذكرياته لفظتها هي وشقيقته منها لآخر الدهر. مسحت عبرة فرت هاربة من عيناها لتقول بصوت متحشرج:

- سأساعدها لقد عملتُ قابلة لفترة، دعني أراها

شعرت "عَنُود" بحركة في منزلهم فتململت في فراشها لتقول بصوت ناعس في دهشة:

- ما زال الوقت مبكرًا جدًا، ماذا يحدث بالخارج!!

بيتهم لا يتكون سوى من غرفتان فقط، غرفة لجدها وغرفة لها تتشاركها مع والدتها، نظرت جانبها فلم تبصر والدتها نائمة بجوارها. رددت بذعر:

- أين ذهبت الآن!!

أجفلتها صرخات امرأة في الخارج فأسرعت بارتداء ملابسها ووشاح رأسها بعدما تملك منها القلق، خرجت من غرفتها فقابلت جدها أمام الغرفة. تسائلت بقلق:

- ماذا يحدث يا جدي؟! مَن يصرخ بالخارج؟؟

كاد أن يرد عليها ولكن قطع حديثهما دخول "أسد" المنزل وهو يحمل امرأة تصرخ بجنون. فغر فاه "عَنُود" وقد ظنّت أنها تعاني هلوسةٌ ما

www.secretsofstories.com

بينما تسمر جدها موضعه، لمحا والدتها تلحق بهما إلى غرفتهما فأوقفتها تسأل بأنفاس متلاحقة:

- ماذا يحدث يا أمي، أهذا أخي "أسد" أم أنني أعاني من الهلوسة

- هو وليس هو في آنٍ واحد

جاوبتها أمها باقتضاب وقد شحب وجهها فتسائل الجد بلوعة:

- كيف هذا؟!

- سأخبركما فيما بعد، الآن دعوني أخرج طفله من أحشاء زوجته بسلام

نظرا لبعضهما البعض في صمت يكسوه الشجن بينما سالت عبراتهم من عينيهما سيلًا، فبعد فراق طويل لا يحق لهم العناق حتى .

طفق يزرع أرض منزلهم إيابًا وذهابًا خوفًا على زوجته التي توصل له صرخاتها من داخل الغرفة وسط نظرات "عَنُود" وجدها المتعلقة به.

فهما الآن لِما قالت والدتها هو وليس هو، فالأمر لا يحتاج الكثير من التفكير.. لقد أضحى أخيها بلا ذاكرة. لم يلتفت لهما منذُ دخوله المنزل فقط يدعو ربه ويبكي من حين لأخر.

تأملت "عَنُود" ذاك الشيخ الذي كان يدعوه أبي في غَيرة رغمًا عنها، فهو لم يعانق شقيقته التي كان يغمدها حبًا قبل عشرِ سنوات، لم ينظر

تجاهها حتى.. كيف لذاكرة بسيطة أن تمحي سنوات من الأُنس والأُخوّة في غمضة عين؟!

- السلامُ عليكم

التفت الأربع ازواج من العيون تجاه مصدر الصوت الواقف على أعتاب باب المنزل في تردد، لم يرد أحد سواها في خفوت:

- وعليكم السلام

أبصرت "عَنُود" علامات الصدمة التي علت وجه "عزّ الدين" فتوجهت إليه تتسائل:

- لِما تسمرت هكذا؟!

جاوبها بتساؤل وهو ما زال ينظر على وجه "أسد" في صدمة بالغة:

- مَن هؤلاء!!

أطرقت برأسها أرضًا ثم قالت في خفوت:

- أخي الذي كنّا نظنه ميت وعائلته الجديدة

نظر تجاهها مدعيًا الجهل بما تقول ليردد في بلاهة مصطنعة:

- ماذا لا أفهم، أشرحي لي أكثر!!

- كان أخي وصديقه المقرب ضد نظام السلطة الحالي، منذُ عشرِ سنوات كانا يقيما احتجاجات ضد النظام ويطالبون بالعدالة، ويحرضون الناس على الاعتراض على الإتاوات وغيرها، وضعتهم

www.secretsofstories.com

السلطة في رأسها وأصبحت تطاردهم لتزج بهم خلف القضبان، لم يستسلما تركا بيوتنا وظلّا يذهبان من مكان لمكان كي لا تعثر عليهم الجنود إلى أن لحقوا بهما ذات ليلة، مات صديق أخي أولًا أمام عيناه ثم لحقه شقيقي في اليوم التالي .. اتبعت جملتها الأخيرة بضحكة ساخرة ثم أضافت:

- أو هكذا كنّا نظن، فها هو يقف أمامنا مرة أخرى ولكن دون ذكريات

ابتلعت غصة في حلقها لتكمل بصوت باكي :

- لم يتذكر وجوهنا البتة، يقف أمامنا كغريب لم يجلس معنا يومًا وقد أصبحت له زوجة تلد في الداخل أيضًا

فغر فاهه لا يصدق ما التقطته أذناه توًا من حديث، عاد "أسد" بعد عشرِ أعوام من المكوث تحت لقب شهيد!!

كاد يسألها عن أمر الخنجر ولكن قطع حديثه صرخات وبكاء طفل رضيع، هرعت "عَنُود" باتجاه الغرفة قاصدة الدلوف وقد اصطدمت بـ "أسد" الذي كان على وشك الدلوف هو الأخر أيضًا. نظر أرضًا ليقول في خفوت:

- أعذريني، ولكن أتلهف لرؤيته

قالت في شجن بأعين دامعة:

- لا عليك

www.secretsofstories.com

خرجت والدتها من الغرفة وهي تحمل الرضيع وقد كان دمع الفرح يسيل من عيناها لرؤيتها حفيدها وولدها بعد غياب في آنٍ واحد.

سلمته لـ "أسد" الذي كان ينتظر على أحر من الجمر مرددة:

- زوجتك بخير يمكنك رؤيتها

- شكرًا لكِ على إنقاذنك إبنتي قبل فوات الأوان

هتف بها الشيخ الذي كان يقف خلف "أسد" المنشغل بهدهدة صغيره، فطنت "عَنُود" الآن لِما كان يدعوه أخيها بأبي فاطمئن قلبها لأنه ما زال هناك أمل يلوح في الأفق.

****

وضعت "هاجر" الطعام أمام زوجة ولدها البكر وسط نظرات "أسد" وأبيها. شكرتها "رُواء:"

- لا أريد، سلمت يداكِ لقد أتعبناكِ معنا كثيرًا اليوم

ودت لو تقول لها بأنها وإن خدمتها عمرها كله لن تكلّ ولا تجدّ، تكفي رؤيتها لولدها سالمًا هو وعائلته. ردت بابتسامة بسيطة:

- يجب أن تتناولي الطعام كي تستطيعين إرضاع ولدك يا بنيتي بشكل جيد، حتى لا يمرض لا قدر الله

- انصتي إليها يا "رُواء"، هي أعلم منكِ حبيبتي

رددها "أسد" برجاء فقالت بابتسامة عشق:

www.secretsofstories.com

- حسنًا يا "حَمَد"، من أجلك فقط

دلفت "عَنُود" الغرفة على جملتها وقد انتهت من تنظيف الصغير، وألبسته ملابس "أسد" عندما كان رضيعًا. تبادلا هي ووالدتها نظرات حسرة.. فقيدهم بات "حَمَد" ودون ذكريات؛ لقد أصبح غريبًا عنهم بالكامل. شرعت "رُواء" في تناول الطعام ببطء، ثم هتفت في دهشة بعدما أبصرت صغيرها بين يدي "عَنُود" الواجمة:

- من أين لكم بهذه الملابس، فأنا لا أرى أي أطفال في المنزل!!

ابتسمت "هاجر" بوهن ثم قالت:

- إنهم لولدي البكر عندما كان رضيعًا، لم أفرط بهما كي يرثهم حفيدي منه

- ألم يتزوج ولدكِ بعد!!

تسائلت "رُواء" فتبادلا هي و"عَنوُد" نظرات مضطربة إلى أن قالت:

- بلى

"رُواء" بإصرار:

- إذن لا أقبل، بالتأكيد ترغبين في إعطائهم لحفيدك، سيذهب زوجي لجلب غيرهم لا تقلقي

- أرجوكِ لا ترفضي هذه الهدية البسيطة مني فأنا أرغب في إعطائهم لولدك

توسلتها "هاجر" فقبلت في إحراج ثم شكرتها بامتنان، لم تستطع "هاجر" كبح فضولها أكثر فتسائلت:

- ولكن تبدون من بلدة أخرى فما سر وجودكم هنا؟!

ردّ "أسد:"

- بالفعل نحن من آياز، ولكن زوجتي تعمل طاهية فأتينا إلى هنا لأن زوجة حاكم بلدتكم لا تتعامل إلا معها في احتفالاتهم

دبّ الرعب في قلبها فتسائلت:

- ولكن قصر الحاكم في ديلماف، ما الذي أتى بكم للقرية؟!

- رغبت "رُواء" في رؤية شلالاتها الساحرة بسبب حديث الناس عنها ولكن من حظنا السئ أتاها ألم المخاض فور وصولنا هناك

هزّت "هاجر" رأسها في تفهم ثم سمعت الشيخ يقول:

- هيا بنا يا "أسد" يجب أن نعود إلى آياز، لقد تأخرنا كثيرًا

أيده "أسد:"

- حسنًا يا أبي، سأهيئ الجمال للرحيل

أصاب الحزن كلًا من "هاجر" و"عَنُود" فكابوسهما سيعود من جديد برحيله مرة أخرى. رددت "عَنُود" وقد امتلأت عيناها دمعًا وهي تنظر باتجاه "أسد:"

www.secretsofstories.com

- أعتقد أن زوجتك ما زالت متعبة، انتظروا للغد فقط من أجل سلامة الرضيع أيضًا

نظر الشيخ و"أسد" لبعضهما البعض بضعة لحظات في حيرة ثم حسم "أسد" الأمر قائلًا:

- حسنًا سننتظر هنا للغد.

***

(٢)

خرج من القصر صباحًا ممتطيًا حصانه وقد حمل معه بعض الحبوب والخضراوات الطازجة، تتبعه "أرقم" كي يعرف أكثر عن أسراره التي يخفيها عليهم بعد صدمته أمس بأنه يملك شقيق توأم، حيثُ أنه يريد طى صفحته من القصر أو ربما نزعها نهائيًا بقوة.

وصل "سُليمان" بعد دقائق معدودة أمام منزل "أنصاري"، وضع لثام وجهه ثم طرق الباب في هدوء. فتحت زوجة "أنصاري" بعد ثوانٍ معدودة الباب، فأعطى لها طعام كل شهر كما اعتاد ثم رحل سريعًا وسط دعائها له وعباراتها الشاكرة لشهامته..

- تساعد "أنصاري" أيضًا دون علمنا!! سيمحيك أبي من على وجه الأرض عندما يعلم تلك الأشياء التي تحيكها من خلف ظهره

نطقها "أرقم" بغل وهو يختبئ خلف أحد الجدران ثم عاود السير خلفه من جديد.

****

في طريق عودته للقصر قابل العم "جميل" يحوم حول القصر من جديد. اضطرب من رؤيته هو وكلبه الشريد فهبط من فوق حصانه ليتقدم باتجاهه في تردد. سأله في ريبة:

- ماذا تفعل هنا يا عم "جميل" مرة ثانية؟!

استدار العجوز له ثم ابتسم مردداً:

- أبحث عن الكنز يا ولدي

تقلصت ملامح "سُليمان" وهو يسأله في دهشة:

- ما سر ابتسامتك تلك؟! يبدو أنك أقتربت كثيرًا من كنزك الذي تبحث عنه منذُ زمن

اتسعت ابتسامة العجوز وهو يقول بنبرة صادقة عميقة:

- اقتربت كثيرًا ولكن كلما هممتُ بأخذه يبتعد عني أكثر، لن أيأس أبدًا بالرغم من ذلك فيكفي أنني عرفتُ موضعه

امتطى "سُليمان" حصانه مرة أخرى ثم رحل وقلبه يتآكله الشجن بينما ظلّ العم "جميل" في الخلفية ينظر لآثاره بعين ضعيفة البصيرة وبقلب مغاير لها .

دلف القصر برأس يكاد ينفجر ألمًا من كثرة التفكير بأمر العم "جميل" وكنزه الضائع، وأخيه وأمر غِمد الخنجر الذي وجدوه الحرّاس في الغابة بالقرب من الجثة. لا يتخيل أن تكون "عَنُود" هي مَن تقتل الحرّاس!! ولكن لِما لا فهي محاربة منذُ الصغر، تعلّمت حمل السيف في عمر يتعلم فيه الأطفال مهارات كالسباحة والرسم..

- أنرت القصر يا صهري العزيز

استفاق من تفكيره على صوت "أرقم" الذي قابله في رَدهة القصر. ردد في اقتضاب:

- شكرًا لك

كاد أن يصعد الدرج كي يصل لغرفته ولكن أوقفته كلمات "أرقم" الفاتكة:

- العفو يا "سُليمان" أم تحب أن أدعوك بـ "عزّ الدين" فكلاهما واحد!!

تسمر "سُليمان" موضعه ثم استدار بجسده ليقول بصدمة:

- أكنت تراقبني؟!

ارتفعت زاوية فم "أرقم" بسخرية ثم قال:

- ماذا ترى!!

تبادلا للحظات نظرات تحدي قطعها "سُليمان" بسؤاله الصريح:

- ماذا تريد؟!

اقترب "أرقم" منه ثم ردد بملامح قاسية وقد نظر في عيناه بقوة:

- أريدك أن تبتعد عن هذا القصر بعدما تحرر أختي من ذمتك

لم يحيد "سُليمان" بعيناه عنه ليردد بتحدٍ:

- وإن لم أفعل!!

- سأخبر أبي عن مساعدتك لـ "أنصاري" رغم علمك بأوامره، وعن شقيقك التوأم أيضًا الذي تخفي أمره عن الجميع وبالتأكيد هذا ورائه لغزٍ ما، وحينها لن ترى سوى سيف فاتك يخترق جسدك

قالها "أرقم" بثبات فابتسم "سُليمان" بلامبالاة مرددًا:

- أخبره، ولكن لا تنسى قبل أن تخبره أن تجمع أدلة تثبت حديثك .. ثم استطرد هامسًا في أذنه:

- ولا تنسى أيضًا أن أبيك لا يستمع لك، لذا الإفصاح عن أمرى لن يؤذي أحدٌ سواك

شحب لون "أرقم" مع جملته الأخيرة فتسمر موضعه لا يقوَ على النظر لعيناه حتى، ابتسم "سُليمان" بظفر ثم صعد تاركًا إياه يشتعل غيظًا. ركل "أرقم" مزهرية طويلة من الخزف تستقر في زاويةٍ ما بغضب ثم ردد بوعيد:

- سأريك يا "سُليمان" إن لم أضعك خلف القضبان الليلة لن أضع عيني في عيناك ثانية.

(٣)

تسلل من الباب المغلق على رَدهة السجن التي تؤدي للعديد من الزنزانات الموصدة بقِفل حديدي ضخم، أمر الحرّاس بالرحيل من أمام باب الرَدهة لأمرٍ ما سري بناءً على رغبة "بكري" صَيدَن، فاستمعوا له دون نقاش.

أبصر المسجونين البادي على وجوههم الشاحبة من قلة الطعام الكد والوهن، بعين حزينة. أسرع بإعطاء الطعام الفاخر لهم من بين قضبان الزنزانة قبل أن يأتي أحد ويراه فيقع في قعر الجُبّ للأبد، مردداً بقلق وهو ينظر لباب الرَدهة من حين لأخر:

- انتهوا سريعًا من تناوله قبل مجئ أحدهم

إلتقطت أذناه دعواتهم له وعباراتهم الشاكرة فارتسمت على ثغره ابتسامة مشرقة، ظلّ يتأمل فرحة عيناهم بالطعام والشراب بعد ليالٍ طويلة دون قطرة ماء فسالت عَبَراته رغمًا عنه.. فماذا يريد الإنسان من هذه الدنيا قبل رحيله سوى عملٌ صالح يجرّ بقدميه إلى الجنة!!

أسرع يلملم بقايا الطعام في صندوق خشبي ثم أخفاه أسفل قماشة سوداء معتمة كي لا تكشف عما فيه قبل أن ينطلق خارج الرَدهة مرة أخرى.

فور خروجه من الرَدهة التي تؤدي لغرف المسجونين ظهرت عيون "أرقم" الذي كان يختبئ خلف أحد جدران السجن من دون علمه، وقد حملت الخبث بألوانه. حيثُ أنه اندهش من وجود كل حرّاس السجن في الخارج بعدما تتبع "سُليمان" إلى هناك، وعندما عَلِم أنها أوامره دلف في حذر كي يكتشف سر جديد .

***

(٤)

تركت المنزل بالكامل لأفراد عائلة ولدها الجديدة لتجلس بغرفة "عزّ الدين" المجاورة لمنزلهم كي يشعروا بالراحة. ما زال الجميع في حالة صدمة وبالأخص "عزّ الدين"، فظهور "أسد" في هذا الوقت المحفوف بالمخاطر سيؤدي بهم جميعًا خلف قضبان "بكري" لا محالة.

جلست "عَنُود" بجانب والدتها فوق الأريكة الخشبية المستقرة في الزاوية ثم رددت بحزن:

- ماذا سنفعل يا أمي؟! "أسد" سيرحل غدًا هل سنتركه يبتعد عنّا مرة أخرى معتقدًا أنه "حَمَد" ذاك؟!

قفزت "هاجر" من موضعها لتقول بإصرار محاربة في ظل دموع عيناها التي تسيل من وقت رؤيتها لولدها:

www.secretsofstories.com

- لا، لن أفرط به مرة ثانية، لن أسمح له بفقدان هويته أكثر من ذلك

قال الجد بقلق:

- يا "هاجر" إن رأوه الحرّاس هنا بالبلدة سيأخذوه ثانية ولكن هذه المرة بلا رجعة، فكري بهدوء ربما هذا خيرٌ له

بكت بكاء مرير فشاركتها "عَنُود" بصدق. رددت "هاجر" من وسط بكائها بصعوبة:

- لن أترك ولدي مرة أخرى، يجب أن يتذكر كل شئ قبل فوات الأوان

قال "عزّ الدين" متنحنحًا:

- أعتذر يا خالة عن التدخل بشئونكم الخاصة، ولكن يبدو لي أنني أملك حلًا لهذه المعضلة

نظروا تجاهه بلهفة كالغريق الذي تعلق بقشة ظهرت له من العدم، فأكمل:

- يجب أن يذهب "أسد" المكان الذي فقد به ذاكرته

- ومن أين سنعرفه؟! جُلّ ما عرفناه أنهم قتلوه ولكن أين، العلم علم الله

رددتها "عَنُود" ببلاهة فقالت والدتها:

- ألم تسمعي زوجته وهي تقول أنها من آياز، كيف وصل لآياز إذن؟!

- بالتأكيد كان يريد الذهاب لمقابلة "شكري" صَيدَن حاكم البلدة، فهو حاكم عادل ويعد شقيق "بكري" صَيدَن حاكمنا، بالتأكيد لحقوا به إلى هناك وقتلوه قبل أن يصل لقصر "شكري" صَيدَن

قالها "عزّ الدين" ببعضِ تفكير فأردفت "هاجر:"

- معك حق، "أسد" قبل خبر وفاته بيوم واحد قبل أن يهرب ثانية، أخبرني أنه سيذهب لـ "شكري" صَيدَن كي يساعده فهو حاكم عادل لا يرد أحد

- أنا "أسد" إذن!!

أجفل الجميع على جملته المتسائلة الحاملة لكل معاني الصدمة، تعلقت به العيون في لوعة بينما لم يجد اللسان من الكلمات ما يقول.

نهضت "عَنُود" من مجلسها تنظر تجاهه في صمت بوجهها المبتل من كثرة البكاء، بينما أكمل وهو يوليهم ظهره:

- استيقظتُ يومًا ما لا أذكر تاريخه، فوجدت الشيخ جالسًا بجانبي يرتل آيات القرآن بصوتٍ عذب بينما أنا مستلقي فوق الفراش لا أقدر على الحراك، أخبرني أنه وجدني مصابًا في منتصف بطني بسيف حاد على حدود آياز هو وإبنته عندما كانوا في رحلة بجمالهم، وقد كُنتُ فاقد للوعي

www.secretsofstories.com

تعالت شهقات "هاجر" فأكمل هو باسترسال:

- أخبرني أنني فلتُ من الموت بأعجوبة، لم استجب للعلاج بالأعشاب من أول مرة، ظنوا أنني سأموت عاجلًا أم آجلًا ولكن أعطاني الله فرصة ثانية لأكمل ما لم أنهيه .. صمت لدقيقتان ثم أردف بصوت متحشرج وقد كبح دموعه:

- سألني عن إسمي، فلم أجب

سألني عن إن كُنتُ أملك عائلة أم لا فلم أجب أيضًا

سألني عن مكان سكني فلم أجب للمرة الثالثة، وقد استنتج أنني أعاني من فقدان ذاكرة بعد صدمة الطعنة حيثُ أنه لم يرى أية إصابات في رأسي، أعطاني إسمًا "حَمَد"، وأعطاني عملًا في المرعى خاصته عندما لمس فيّ الشهامة والأخلاق، وبعد تسع سنوات من العِشرة أعطاني إبنته بعدما تأقلمتُ بصعوبة مع ذاتي الجديدة وقد فقدتُ الأمل في أن أجد ذاتي القديمة مرة أخرى، تعذبتُ كثيرًا مع أحلام تصلني بالماضي ولكن كُنتُ لا أقدر على التذكر، فكل ما أراه سيف، وخيل، وسقوط بلا رجعة

استدار ناحيتهم بوجهه ثم قال بابتسامة واسعة وقد التمعت عيناه بالدموع:

- ويشاء القدر أن ولدي هو مَن يسوقني إلى عائلتي مرة أخرى

سألته "هاجر" في وجل:

- هل تذكرت وجوهنا حقًا يا "أسد"؟!

- نعم يا أمي، كُنتُ أحتاج فقط لرؤية أي شئ من الماضي لأتذكر وآياز كانت خالية من أي ماضي لي صلة به، عندما نطقتِ إسم "أسد" على باب المنزل راودتني بعض المشاهد ولكن ولادة "رُواء" شغلتني عن التركيز، أتيتُ الآن كي أسألك عن هذا الإسم لأتأكد، فسمعت حديثكم وقد تراءت لي الرؤية

أجابها من وسط دموعه وقد غلبه الشوق فارتمى بأحضانها مرددًا:

- سامحيني لأن الذاكرة اللعينة لم تتعرف عليكِ بالبداية ولكن كُنتُ أريد خيط رفيع يصلني بالماضي

ربتت على ظهره في حنان بينما أجهشت "عَنُود" في بكاء مرير هي الأخرى، عانقه الجد بحرارة وكذلك شقيقته التي عندما رآها قال بمشاغبة:

- كبرتِ كثيرًا يا "عَنُود"

ضحكت من بين دموعها فتسائل بلوعة بعدما كفكفوا دمعهم:

- العم "جميل" يا أمي والد "ليث" وزوجته ما زالوا بالبلدة؟!

www.secretsofstories.com

انقبض قلب "عزّ الدين" عند سؤاله بينما جاوبته "هاجر:"

- لا أعرف يا ولدي، ولكن قبل خروجنا من ديلماف كي لا يلحقوا الأذى بنا، سمعت أن أم "ليث" توفت في الحال بعد معرفة خبر موته على أيدي هؤلاء الطغاة

- يجب أن تعرف البلدة بعودتي

رددها "أسد" بإصرار فقالت "هاجر" بتوسل:

- لا يا "أسد" إن عرفوا بعودتك سيقتلونك في الحال يا ولدي، عليك بالعودة مع زوجتك وأبيها إلى آياز ونحن سنلحق بك إلى هناك ولكن بعد يومين، أرجوك لا تؤلم قلبي عليك للمرة الثانية

قاطعهم "عزّ الدين:"

- اعتذر عن المقاطعة ولكن "بكري" يبحث عن "عَنُود" يا خالة في أنحاء روماف وسيصل بأية لحظة إلى هنا

سألته بخوف:

- لِما يبحث عنها؟!

سرد لهم ما أخبره به أخيه "سُليمان" أمس فارتعشت "هاجر" خوفًا بينما قالت "عَنُود" في دهشة:

- أنا لا أعرف طريق القصر كي أقتل أحد حراسه، ولكن كيف وصل غِمد خنجري إلى هناك فهو ضائع منذُ أمس بالفعل!!

لم يتحدث أحد، ظلوا ينظرون إليها في صمت ملئ بالشك فأردفت:

- صدقوني لم أذهب إلى هناك البتة

قالتها بتوسل فردد "عزّ الدين:"

- ليس مهمًا الآن يا "عَنُود" المهم أن نتصرف قبل وصولهم

- لقد فات الأوان مع الأسف أيها المحارب الشجاع

نطقها "بكري" الذي دلف من باب الغرفة توًا ومن خلفه أربعة من الرايات السوداء المحملين بالسيوف الفاتكة، فأصابتهم برقة.

***

(٥)

قبل القبض على "عَنُود" بساعات..

استيقظت من نومها بشعرها الكستنائي المنسدل فوق كتفيها كالحرير، فوجدته يجلس على طرف الفراش لا يفصل بينهما سوى بضعة سنتيمترات، ارتبكت فعادت للوراء بغتةً بعدما نهضت من نومتها لتقول بدهشة:

- ماذا حدث منذُ الصباح لتجلس بجواري هكذا، "أفنان" بخير؟!

ابتسم في وجهها صباحًا على غير العادة مرددًا:

- لا تقلقي هي بخير تمامًا، ما زالت نائمة بغرفتها

www.secretsofstories.com

عقدت حاجبيها في دهشة لتردد ببعضِ تفكير:

- إلى الآن!! يبدو أن "سُليمان" مكث معها كثيرًا بالأمس فغفت في وقت متأخر من الليل، سأذهب لأيقظها

أزاحت الغطاء عنها فكشف عن النكليجيه الأحمر التي كانت ترتديه، كادت أن تنهض فأمسك بكفها مانعًا إياها من النهوض ليقول:

نكليجيه: لانجري للنساء شفاف على شكل فستان، يلبس في غرف النوم. وهو يصنع من النايلون أو الحرير أو الشيفون.

- ابقي قليلًا، سنيقظها فيما بعد

اندهشت مما يقول ولكن منعها من التساؤل عن سر نبرته الحانية معها منذُ الصباح، رؤيتها للطاولة التي تحمل ما لذّ وطاب من الأطعمة في زاوية الغرفة:

- هل أنا داخل حلمٌ وردىّ أم ماذا؟!

ابتسم "بكري" ثم انحنى يقبّل كفها بعمق مرددًا في رقة بالغة:

- لم نتناول الفطور بمفردنا منذُ وقتٍ طويل، لذا أردتُ أن أعوضكِ

شكرته في فتور وقد تذكرت حديث الصيّاد:

- سلمت على مجهودك، ولكنني لستُ جائعة

نهضت ثم ارتدت مبذلها ذو الأكمام الشفافة فوقف قبالتها يقول:

- لن تذهبي إلى أي مكان قبل تناول الفطور معي يا "ميسم"

أنهى جملته ثم اقترب منها أكثر فطفقت تبتعد للوراء إلى أن التصقت بالحائط خلفها، ظلّ يتأمل قسماتها قليلًا ثم اقترب بوجهه منها ولكنها أشاحت بوجهها بعيدًا عنه رافضة إياه..

- ماذا بكِ لا أفهم!! أم ما زالت ذكريات "فياض" في عقلك تطاردك

نطقها بحدة وهو ما زال يحاصرها فقالت وهي تنظر له بتقزز:

- لستُ مثلك يا "بكري"، منذُ أن وطأت قدماي هذا القصر وأنا تعاهدت مع نفسي أن أنساه نهائيًا احترامًا لك حتى وإن لم أكن أريدك، فأنت زوجي بالنهاية

احتدت نظراته تجاهها فردد:

- ولكنكِ تطيعينني دون حب، وهذا يعد خيانة

ارتفعت زاوية فمها بسخرية لتقول:

- أنتَ مَن تتحدث عن الخيانة!! تكفي خيانتك لصديقك

أطرق بعيناه أرضًا ثم تذكر أيام صداقته مع "فياض"، حيثُ أنه يومٍ ما تعرف عليه عندما ساعده "فياض" في مواجهة ذئبٍ هاجمه في الغابة أثناء رحلة صيد ومنذُ هذه اللحظة أصبحا صديقين رغم فارق العمر بينهما، كان "فياض" يعلم أن "بكري" سيصبح ولي العهد من بعد والده فابتعد عنه بعدما شرح له الأمر كي لا يظن الناس أنه يصادقه من أجل رغبة في نفوذ، لم يقبل "بكري" بالأمر فذهب إلى بيت

www.secretsofstories.com

"فياض" كي يتحدث معه وحينها رأى "ميسم" وقد كانت هناك عربة خيول ستصطدم بها، فأسرع بإنقاذها.

بعدها بأيام سأل "فياض" عنها فأخبره أنها الفتاة التي يتمنى أن يتزوجها، ورغم ذلك لم تذهب من باله مطلقًا مع أنه متزوج بالفعل ويملك طفل صغير، لم يلقِ "فياض" للأمر اهتمام فهو على علم بأنه متزوج وأيضًا يكبرها في العمر بإثنى عشر عامًا، ولكن ما لم يخطر على باله سيل لعاب أهلها أمام أمواله ونفوذه عندما طلب يدها منهم..

حينها عرف "فياض" أنه لم ينقذ من الذئب سوى ذئبٍ مثله.

سألته في حدة:

- لِما صمت لسانك؟! حديثي كان كالملح على الجُرح أليس كذلك!!

قبض على ذراعها بقوة ثم ألقاها بكل قوته فوق الفراش، ركل طاولة الطعام أيضًا قبل أن يخرج من الغرفة فامتلئت أرضيتها بأشلاء الزجاج المتهشم بينما هي بكت بمرارة.

فور خروجه من الغرفة لمح "أرقم" فتجاوزه متجاهلًا إياه ولكن الأخر أوقفه قائلًا:

- انتظر يا أبي، أنا جئت لمقابلتك

زفر في ضيق ثم قال بامتعاض:

- ماذا تريد الآن أنت الأخر!!

حدثه حديث قصير ولكن يحمل الكثير فقال "بكري" بحسيس خطير:

- إن كان حديثك هذا كذب سأنفيك من البلدة برمتها، كُن على علم بذلك

- أنا واثق أنك ستضعني في مكانة بعدها لم أتخيلها من قبل

شعر "بكري" بمدى جدية حديثه فقال بحسم:

- إذن سأذهب الآن لاكتشاف مدى صحة الأمر الذي أخبرتني به توًا.

***

(٦)

تسير في حديقة القصر بلا هدى راسمة على شفتيها ابتسامة مشرقة وهي تحمل وردة من ورداتها بين يديها، تعثرت في صخرة تستقر في منتصف الطريق بسبب شرودها فسقطت فوق الأرض الصلبة. تأوهت في صمت ثم رفعت أطراف ثوبها لتدلك ركبتها كي تخفف من حدة الألم فرأت بقعة من الدماء محلّ السقوط تتسع شيئًا فشيئًا..

- دعيني أطببها

رفعت رأسها فوجدته أمامها، ابتسمت بحب وكأنها لم تسقط منذُ قليل لتقول في خجل وقد كشفت عن ركبتها أكثر:

- حسنًا

قام بفتح صنبور مياه يستقر في وسط الحديقة من أجل تسقية الزرع ثم وضع أسفله قطعة من ملابسه قد نزعها من ثوانٍ. عاد إليها مرة أخرى وقد بدأ في تنظيف جرحها رويدًا رويدًا، لم تشعر بأي ألم حينها رغم أن الجُرح لم يلتئم بعد.

تذكرت هذا الشاب المراهق الذي طبب لها جراحها ذات يوم في الحي الفقير عندما سقطت في باحة الطريق فوق ركبتيها، فابتسمت بمرح. ينقص هذا المشهد ثمرة الدرّاق وبيت الشعر الذي كان يسمّعها إياه في كل مرة يقابلها فيها أمام بيت جدتها..

- بالتأكيد هذه ستنسيكِ آلام العثرة

انتبهت إلى حديثه فرأته يحمل بين يديه ثمرة درّاق طازجة، تسائلت وقد اعترتها صدمة جلية:

- من أين تعرف أنني أحب ثمرة الدرّاق؟!

نظر في عمق عيناها ثم ردد بنبرة رجولية جشّة:

أفنان يا نفحة عطر غابت وانا روحي معه

يا حلمي الوردي على درب المتاعب والشقا

فغر فاهها في صدمة فقالت بعدم فهم:

- من أين سمعت هذا الشعر!!

ابتسم ولم يرد على سؤالها بل أكمل:

أفنان يا كاس انكسر واحترت يا كيف أجمعه
ياحب يومنّه نزل في خافقي رقا رقا
أفنان ياشمعه طفت بيدي وتهت بمعمعه
مدري؟ومدري كيف مدري.آه مدري وش بقا
أفنان أصوتله أنا والليل توهّ مسمعه
أظلم وضاع الصوت في دربٍ ملته الاروقا
أفنان لا لا يا بعدي يا دنيتي ويامطلعه
ياأولي ياآخري ياملتقى ما يلتقا
في كل نخوات العرب بنخاك تكفين السعه
لا لا تخليني غريب وكل بابٍ يطرقا
تاهت بي الدنيا وتهت ايها فقير ومطمعه
نظره من عيونك قبل لا الموت مني يسرقا
أفنان انادري صوتي المبحوح لا ماتسمعه
لكن عشم مبهم بليد ولا لقاله أصدقا
يالمركب الراحل على موج يتلاطم منبعه
ياشمس غابت من ورى السبع البحور بلا لقا
أبي وعد مهما يطول فراقنا لاتقطعه
ولا تهقاانه يجي مني ولا لا ماهقا

www.secretsofstories.com

ارسل علي طيفك يدللني وانور له اشمعه
واحيا معه وآموت في شوفه وأهيم اليا أشرقا
أفنان يا وردة حنان فيوم قلبي ازرعه
لا لا تخليني غريب وكل بابٍ يطرقا

نهضت من فوق الأرضية مبتعدة للوراء عدة خطوات وقد كستها دهشة عارمة، تلكأ الوجوم على صفحة وجهها فقال وهو ينهض من فوق الأرضية:

- لقد عثرتُ عليكِ يا حلمي الوردي

- أنت الشاب المراهق الذي يقطن بالحي الفقير، أنت لست سراب!!

نطقتها مشدوهة فاقترب منها إلى أن صار قبالتها ليقول:

- نعم هو أنا

- ولِما لم تخبرني من البداية؟

سألته في انزعاج. كان على وشك الشرح لها ولكن صوت والدها من خلفهما قاطعه:

- سأخبرك أنا يا "أفنان"، لِما لم يخبركِ منذُ البداية.

الخاتمة

(١)

انتفض جسد "سُليمان" فزعًا عندما حضر "أرقم" و"بكري" الذي نطق بجملته الأخيرة، تجسدت في ذاكرته كل المشاهد البشعة التي يمكن أن تحدث. تسائل في نفسه:(هل عرف "بكري" هويته الحقيقية؟!).

اقترب "بكري" من محيط وقفتهما ثم قال بغضب دفين وهو ينظر لـ "سُليمان" وسط نظرات "أفنان" المشدوهة:

- هل كُنت تظنني أحمق لن أكشف حيلك بعد هذه المدة أيها الحقير!!

ردد "سُليمان" أمام وجهه دون خوف:

- وقد كان ظني في محلّه

قال "أرقم" بحقد دفين:

- ماذا تنتظر يا أبي، اقتله في الحال

- ماذا يحدث هنا؟! هل بإمكانكم أن تفهموني ذلك!!

قالتها "أفنان" برجاء فأردف "بكري" ممسكًا زمام الحديث وهو ينظر لـ "سُليمان" باشمئزاز:

- سأطلعكِ على كل شئ ولكن دعيني أضمه لحاشيته الحقيرة مثله

فور إنهاء "بكري" كلمته قام أحد الحرّاس بضرب "سُليمان" بواسطة مقبض السيف في منتصف بطنه فانحنى رغمًا عنه متأوهًا بشدة، سحبوه لحيثُ القصر بينما كان يتقدمه "أرقم" و"بكري" الذي توسلته "أفنان" ببكاء:

- اتركه يا أبي من أجلي، لا أقدر على رؤية زوجي مهانًا بتلك الطريقة

هتف "بكري" أمام وجهها بصرامة بعد وصولهما رَدهة القصر:

- انتهى الأمر "أفنان" هذا الحقير خانني، وسيحررك من ذمته الآن رغمًا عنه

"أرقم" بتأييد:

- أبي معه حق يا أختي، اسمعي له

ردد "سُليمان" في إصرار بصوت وهن من شدة الضربة:

- لن أحررها، "أفنان" ملكي وستظل كذلك لآخر عمري رغم أنوفكم جميعًا

هدر "بكري" في الحرّاس:

- اجلبو لي الأخرين فورًا، هيا

ذهب الحرّاس لينفذوا أمره بينما أتت "ميسم" إلى أسفل بعد سماعها نبرتهم العالية فقالت في دهشة وهي ترى اثنان من الحرّاس يقبضون على زوج إبنتها:

- ماذا يحدث هنا!!

هرعت إليها "أفنان" لتقول في توسل:

- لا أعرف يا أمي لِما أبي يفعل معه هذا، اقنعيه بتركه من أجل الله

أنهت "أفنان" جملتها ثم ارتمت في أحضان والدتها، ربتت "ميسم" على ظهرها في حنو ثم اقتربت من "بكري" لتقول في امتعاض:

- لِما تفعل هذا، ألا تجيد سوى عذاب محبيك أم ماذا؟!

كاد أن يصفعها فأمسكت بكفه المرتفعة لتقول في تحدٍ:

- لم تحزر أبدًا يا "بكري"، أنا لن أصمت لك أبدًا بعد الآن

- يكفي أرجوكم، يكفي هذا لم أعد أتحمل

نطقتها "أفنان" متوسلة من وسط بكائها ثم سقطت مغشيًا عليها، صرخ "سُليمان" بإسمها بينما أسرعت "ميسم" إليها تحتضن رأسها مرددة في هلع:

- "أفنان" حبيبتي ماذا بكِ، أجيبيني، "أفنااااان"

قال "أرقم" بغل:

- كله بسبب ذلك الحقير

- اجلبوا الماء فورًا

www.secretsofstories.com

صرخ بها "بكري" للخدم فجائوه بالماء بعد ثوانٍ معدودة، أخذ ينثر الماء فوق وجهها فبدأت تستفيق رويدًا رويدًا. شكر "سُليمان" المحاصر ربه ثم ردد في تقزز:

- أنظر ماذا فعلت بأحب الناس إليك!!

من قبل سممت طعام أبيك كي تستولَ على السُلطة، ومن بعده نفيت أخيك الأكبر لتنعم بحكم بلدة وقرية بينما لا يحق لأخيك سوى بلدة واحدة رغم أن أبيك قد كتب لك أنت منذُ البداية آياز وحدها، ثم خُنت صديقك الذي أنقذك من الموت وسرقت "ميسم" حُب حياته منه بكل وقاحة رغم علمك برغبته في الزواج منها مستغلًا نفوذك وكبريائك، وأخيرًا تسببت في انتحار زوجتك الأولى التي لم تحب سواك

غلف الصمت المكان، لاحت نظرات دهشة وصدمة في الأفق بين "أرقم" و"أفنان" موجهة لوالدهم و"ميسم". سالت دموع "ميسم" عند ذكر أمر "فياض" بينما أكمل "سُليمان:"

- قتلت الأبرياء وسفكت الدماء من أجل الاحتفاظ بكرسي السُلطة فترة أكبر غير عابئًا بأحوال الناس، حرمت عائلات من آبائهم وأزواجهم وأبنائهم وفتياتهم حتى، جعلت الناس تخشى من التحدث عن العدالة كي لا يلقوا مصير من قبلهم، عثت فسادًا في الأرض يا "بكري" كفرعون فبعث الله لك بمن يبتر جموحك، فرعون أدخل سيدنا موسى قصره

واتخذه ولدًا دون أن يعلم أن هذا الفتى يومًا ما سيقف أمامه يمنعه عما يفعل، وأنت أيضًا أدخلتني قصرك واتخذتني كولدك فوقفت أمامك أمنعك عن التقدم أكثر

تسائل "أرقم" في صدمة وقد ترقرقت عيناه بالدمع:

- هل ما يقوله صحيح يا أبي!!

"أرقم" و"أفنان" ليسا على علم بما يفعله أبيهم، نعم يسجن ويحكم ولكن في ظنهم أنهم مذنبون؛ ربما "أمير" و"ميسم" فقط مَن يعلما بدناءته. لا يعلما أيضًا أمر انتحار زوجته الأولى، "ميسم" فقط مَن تعلم ذلك. وما كان كالطامة الكبرى بالنسبةِ لهم أمر زواجه من والدتهم رغم علمه بأنها تخص صديقه.

لم يجد "أرقم" ردًا منه فهرع لوالدته يسألها:

- هل أبي فعل ذلك بكِ حقًا يا أمي؟!

لم يأتيه ردًا سوى دموعًا حارّة تنهمر فوق وجنتيها بغزارة هي وشقيقته التي تجلس بجانبها أرضًا في كمد، ففطن أن حديث "سُليمان" صحيح.

ردد بتقزز وهو ينظر لوالده:

- أنت الحقير ولا يوجد غيرك يمكن نعته بهذه الخصلة

اصطك "بكري" على أسنان بقوة ثم هدر أمام وجهه بهياج عنيف:

- أجننت!! أنا أبيك كيف تتحدث معي هكذا؟!

صفعه "بكري" صفعة قوية فردد غير عابئًا به:

- أنا من اليوم لم يعد لي أب، أمي فقط مَن تشغلني، أمي التي علمتني قول الصدق والصراحة ولو على رقبتي سيف مسلول

دلف الحرّاس وقد جائوا بـ"أسد" و"عزّ الدين" و"هاجر" و"عَنُود" والجد. أصيب "سُليمان" بنازلة عندما رأى "أسد" ماثل أمامه فردد في صدمة:

- "أسد" ما زلت على قيد الحياة!!

- أنا أيضًا تفاجأت، تعرف يا "سُليمان" سيسعد ولدي "أمير" كثيرًا بهذا الخبر فلطالما أراد قتله بيده، والآن سنحت له الفرصة

تفوه بها "بكري" وقد رسم على محياه ابتسامة خبيثة ثم أضاف للحرّاس وهو يتأمل "أسد" الواقف بشموخ أمامه:

- استدعوا "أمير" إلى هنا فورًا

تضاعفت دهشة "أفنان"، و"ميسم"، وعائلة "فياض" عندما رأوا وجه "سُليمان" المشابه لحد كبير لوجه "عزّ الدين". تسائلت "عَنُود":

- لِما لم تخبرنا يا "عزّ الدين" عن أخيك!!

ردّ عليها "بكري":

- لأن كلاهما لم يظهران للناس إلا بعد موت أخيهما، "ليث"

www.secretsofstories.com

عَلَى وجوههم جميعًا شَدَه عندما سمعوا ما قاله "بكري" وخاصةَ عائلة "فياض". أكمل "بكري:"

- خبئتهما والدتهما عني كي لا يلقيان مصير أخيهما نفسه، خبئتهما عن الناس جميعًا حيثُ أشاعت بعد ولادتهما بسنوات قليلة أنهما ماتا في حريق بالبلدة

رددت "أفنان" لـ "سُليمان" في ذهول وقد تذكرت حديث جدتها:

- لذلك كُنت تختبئ عند رؤية أمي!!

في حين نظرت "عَنُود" لـ "عزّ الدين" وقد فطنت سبب عدم إنقاذه للفتاة ذلك اليوم من الحرّاس، فهو لا يريد كشف أمره هو وأخيه.

دلف الحرّاس للقصر مرة أخرى فسألهم "بكري" بغضب عندما لم يرى ولده معهم:

- أين "أمير"؟!

- لم نجده في القصر برمته "بكري" صَيدَن، ذهب النصف الأخر يبحث عنه في أرجاء الحديقة كلها

أشار لهم "بكري" بالرحيل بينما تقدم من "عَنُود" ليقول أمام ملامحها الجامدة ناظرًا في عيناها السوداوان الكحيلتان:

- ألن تعترفي بجريمتك أيتها المحاربة الصغيرة؟!

www.secretsofstories.com

رددت في صمود:

- عندما تعترف أنت بظلمك لنا سأعترف أنا بجريمتي

ارتعش جسد "هاجر" وقد دعت ربها ألا تفقد أحد من أبنائها ثانية بينما قال "بكري" بإعجاب وهو يهم بلمس وجهها:

- تعجبني شراستك جدًا

- إياك أن تلمسها بيداك القذرة أيها الدنئ

هتف بها "عزّ الدين" مكتف الأيدي بحبال غليظة فابتسم "بكري" قائلًا بسخرية وسط نظرات "عَنُود" المتلهفة لـ "عزّ الدين:"

- أعجبني أدائك كثيرًا أيها العاشق المجنون

لم يلبث أن ينهي جملته إلا وجرّ "عَنُود" خلفه من وشاحها فانسلت شعرها الأسود الطويل منه. أحكم قبضته على خصلاتها السوداء ثم دفعها صوب السُلم ليصطدم رأسها بدرجاته بقوة جعلت خط من الدماء يظهر فوق جبهتها.

صرخت "هاجر" صرخة من أعماقها ترددت بين جدران القصر الفسيح بينما ردد "عزّ الدين" بغل:

- إن كُنت تصنف رجلًا فك وثاقي أيها الوقح، بدلًا من أنك تتعامل مع النساء أمثالك

خارت قوى "عَنُود"، حاولت النهوض أكثر من مرة ولكنها فشلت، ظلت تحاول فك وثاقها كي تستطع الإمساك بمسند السُلم لتستند عليه ولكنها فشلت. ردد "أسد" في جمود:

- أنتِ محاربة يا "عَنُود"، المحارب العَنُود لا يستسلم، تحملي

ابتسمت في وهن بينما أسرعت "أفنان" في فك وثاقها. أسرع "بكري" يُبعد "أفنان" ممسكًا إياها من ذراعها ليلقيها بجانب والدتها مرة أخرى قائلًا بتحذير وبنبرة غريبة لم تراها "أفنان" من قبل:

- لا تتدخلي كي تجبريني على فعل شئ سئ معك، أفهمتِ؟!

- أنت لا تحب سوى نفسك، هذا ترائى لي الآن، "بكري" صَيدَن

نطقها "أرقم" من بين أسنانه مشددًا على كل حرف منها، كان "بكري" على وشك تعليمه درس قاسي ولكن وجد الحرّاس يدلفون القصر بجسد "أمير" المسجى تمامًا.

ردد بتساؤل يكسوه القلق:

- ماذا به؟!

وضعوا جسده أرضًا في تردد ثم قالوا:

- وجدنا جسده مُلقى منحور الرقبة كالحرّاس في بركة الحديقة

هرع "بكري" إليه وسط نظرات مَن حوله الجامدة، أخذ يحرك جسده في قوة لعلّه يفتح عيناه ولكن دون جدوى. لمح "بكري" نفس الحرفان الداميان فوق عنقه المنحور ليصرخ بجنون غير مصدقًا ما حدث له.

بعدما استوعب عقله ما حدث لولده عاد لجسد "عَنُود" الهزيل الذي ما زال مستلقي فوق الأرضية ثم ردد بغضب عارم أمام وجهها:

- سأنحر رقبتكِ كما نحرتِ رقبته أمام عينا عائلتك

لم تهتز عضلة واحدة في وجهها بينما علت الصدمة وجوههم جميعًا، رحل "بكري" عنها للحظات ثم عاد مرة أخرى وهو يحمل بيده خنجرها الذي أخذه منها عنوة عندما ذهبوا إلى بيتها، عيناه كانت تنضح شرارًا ليس له مثيل.. بدا كشيطان من نار. رددت "عَنُود" الشهادة في صمت بينما همّ الأخر وسط صراخ "عزّ الدين" بالتوقف عما يفعل، بوضع الخنجر فوق رقبتها..

- أنا مَن قتلت الحرّاس

نطقتها "هاجر" بجمود وقد ترقرقت عيناها بالعَبَرات، نظر الجميع إليها في صدمة ثم أضافت دون خوف:

- وأنا مَن ذبحت رقبة ولدك فجر أمس وألقيت بجسده في البركة

هتف "أسد" في ذهول:

- ماذا بكِ يا أمي؟! ما الذي تقولينه

نظرت له ثم أكملت بصوت متحشرج:

- أنا كُنتُ محاربة أيضًا يا "أسد" لا تنسى ذلك، والمحارب لا يرضى بالظلم، فاض بى وقررتُ الانتقام لك ولوالدك، ولكل أم فقدت ولدها، ولكل زوجة فقدت زوجها بسبب ذلك الحقير

نظرت في عينا "بكري" لتقول بتحدٍ:

- إن أردت ذبح قاتل إبنك، فأنا أمامك

اقترب منها ثم قال بغضب:

- أتحاولين خداعي أم ماذا؟!

- المحارب لا يخادع "بكري" صَيدَن، وأسير الحق يكون ذو دم فائر

جحظت عيناه فأكملت بابتسامة ظفر فوق شفتيها:

- نعم أنا من حفرت الحرفان الداميان فوق رقبة كل حارس نحرتها، "أ.ح" لا ترمز إلا لأسير الحق، "جاد" الذي سلب أموال الفلاحين وقتل الأبرياء وسجن المظلومين يجب أن يكون هذا مصيره، الحارس الذي يتحرش ببنات البلدة ويهينهن يستحق هذا المصير، ولدك الذي عاث في الأرض فسادًا وكاد أن يبني ديلماف جديدة لا يتخللها كلمة عدل يستحق الذبح ألف مرة

أطبق على فكها بقبضة يداه قائلًا بغل دفين:

- سأريكِ الآن كيف يكون القصاص أيتها الأسيرة

www.secretsofstories.com

أوقفته وأجفلتهم نداءات بالخارج، وأصوات سيوف تتخبط ببعضها البعض. تركها "بكري" ثم اتجه لشرفة القصر التي تستقر آخر الرَدهة فرأى حشد كبير من الناس أمام قصره يشتبكون مع الجنود، فغر فاهه وقد أدرك أنه محفوف بالخطر وعليه بالهرب.. لقد ظهر الغضب اليوم ولن يزول إلا بإزالته.

كاد أن يخرج من باب القصر الخشبي فسمع ضربات قوية عليه، تَشجّع "أرقم" وبدأ في فك وثاق "أسد" ومَن معه بينما انطلقت "هاجر" وراء "بكري" بخنجر إبنتها الذي سقط من بين يديه بعدما رأى مظهر الناس في الخارج.

***

(٢)

شهدت ديلماف حربًا ضارية واضعة العدل حافز لها بعد سنوات من الخضوع المميت. أخذ المسجونين في ضرب القضبان الحديدية بواسطة قبضة يديهم بأقصى قوة يمتلكونها عندما سمعوا هتافات الحشد في الخارج لقرب السجون من قصر "بكري"، انكسرت الأقفال بفعل الحماس المتأجج داخلهم كالنيران المشتعلة ففروا هاربين .

هرب حرّاس السجن تاركين أبوابه مفتوحة من مظهر المسجونين المخيف، غير عابئين بقرارات حاكمهم الذي كان يبحث عن باب يهرب منه.. لا من رعيته بل من غضبهم الذي ليس له رابط اليوم. ظلّت "هاجر" تبحث عنه بإصرار وهي تحمل خنجرها في أنحاء القصر المهيب كله بينما خرج مَن في الأسفل للخارج.

لحقت "ميسم" بـ"هاجر" في ظل انشغال الأخرين باحتجاجات شعب ديلماف. كانت تبكي وهي تفتح أبواب غرف القصر واحدًا إثر الأخر تبحث عنهما، ثم سمعت فجأة أصوات ضوضاء بالأعلى في جناح الضيوف الوافدين من الخارج فأسرعت إلى هناك.

عند وصولها كانت "هاجر" تقف أمامه بخنجرها، هتف "بكري" عندما رآها بخوف وهو ينتقل ببصره بينهن:

- أوقفيها يا "ميسم" تريد قتل زوجك أب أبنائك، أوقفيها

- لن أوقفها من أجلك بل من أجل نفسها .. ثم استطردت تقول بتوسل وهي تنظر لـ "هاجر:"

- لا تؤدي بحياتك يا "هاجر" من أجله، لا يستحق صدقيني

- لقد عاهدتُ ربي أن أنال القصاص قبل موتي ويجب أن أناله، سأرتاح في قبري عندما أنحر رقبته بيداي

رددتها "هاجر" بإصرار وسط عيناها التي تسيل منه الدمع، وسط انشغال الإثنان بالحديث هرب "بكري" ثانيًا؛ لحقتا به ولكنه اختفى عن الأنظار. رددت "هاجر" وهي تنزل السُلم:

- سأذهب لأسفل بينما أنتِ اذهبي لأعلى

هزّت "ميسم" رأسها في صمت ثم طاوعتها على ما تريد.. ذهبت إحداهما لأعلى والأخرى لأسفل.

***

(٣)

عندما خرج "أسد" للخارج ورأى منظر الحشد بالخارج التمعت عيناه بالدموع فأخيرًا ديلماف تخلت عن قناع الخوف، كانت "عَنُود" تستند عليه بسبب شدة الدفعة وقد خلع "عزّ الدين" عمامته وأعطاها لـ"أسد" يعطيها لها كي تخفي شعرها أسفلها، فوشاحها اختفى بعدما نزعه "بكري" من فوق رأسها.

الحشد أيضًا ضمّ أنصاري الذي كان يتكئ على عصوان من الخشب وبجانبه زوجته التي استمعت لنصائح جيرانها بالإنضمام لهم في احتجاج يوم العيد ضد سُلطة "بكري"، بالطبع لم تحتاج للتوسلات فهي كانت تريد الانتقام لسنوات زوجها التي ضاعت هباءً في خدمته.

هتف "سُليمان" بحماس وهو ينظر للحشد أمامه:

- ألم أخبرك يا "عزّ الدين" بأن ديلماف ستشهد لحظة عدل، ألم أخبرك بمساندتهم لنا!!

قالت "أفنان" في دهشة:

- أأنت مَن فعلت ذلك وحدك يا "سُليمان"؟!

حاوط "سُليمان" كتفا "عزّ الدين" بفخر ثم قال في سعادة بالغة:

- أنا وروحي الأخرى في الحياة

تقابلتا عينا "عزّ الدين" و"عَنُود" وقد ابتسمت في وهن، كانت تود أن تقول له أنه أشجع محارب رأته في حياتها بعد أخيها وأبيها، ولكن لم تسنح لها الفرصة.. فاكتفت بنظرة مشجعة فطنها هو.

"سُليمان" و"عزّ الدين" قاما بالحديث مع أهالي المعتقلين في سجون "بكري" عن ضرورة الاحتجاج ضد ما يفعل، دفعوا في دمائهم فضل الوطن عليهم وفضلهم عليه. رفض الناس في البداية خوفًا من بطش "بكري"، ولكن بعدما أخبرهم "سُليمان" أن البلدة كلها ضد ما يفعل ويحتاجون للمساندة.. أيدوه متفقين على الاحتجاج يوم العيد.

لمح "سُليمان" و"عزّ الدين" العم "جميل" - والدهما- فأسرعا إليه يحتضناه بشوقٍ ضاري ليردد في سعادة وسط دموعه المنهمرة كنهر روماف الفيروزي:

www.secretsofstories.com

- الآن حصلتُ على الكنز.

***

اقتربت "هاجر" من "أسد" الذي كان يقف أمام مدخل باب القصر يسده بجسده الضخم وهي تقول بتساؤل:

- ألم يخرج "بكري" من هنا؟!

- ماذا تريدين منه يا أمي؟!

تسائل "أسد" في حدة فجاوبته:

- لن أرتاح في قبري إلا بمماته اليوم

- يكفي يا أمي يكفي ما فعلتيه بالحرّاس، ألم تُخمد نارك بعد؟!

ابتسمت وهي تجاوبه:

- لن تُخمد ناري إلا بموته أمام عيناي

- اسمعي كلمة أخي يا أمي، يكفي إلى هنا

توسلتها "عَنُود" باكية، كادت أن ترد عليها ولكنها سمعت "ميسم" تصرخ:

- انتبه "أسد"

استداروا بأجسادهم فرأوا "بكري" يتقدم نحو "أسد" بسكين حاد، وقفت "هاجر" أمامه فتلقت الضربة بدلًا منه..

- أمي

صرخت بها "عَنُود" في لوعة بينما هجم الحشد على "بكري" يقتصون منه حقوقهم وحقوق غيرهم. ابتسمت "هاجر" وهي ترى "بكري" يسقط صريعًا أمام عيناها على يد شعب ديلماف. رددت في وهن:

- الآن سأموت مرتاحة البال

احتضنتها "عَنُود" قائلة:

- لا تركينني يا أمي، أرجوكِ

ابتسمت "هاجر" ولم تقدر على بوح المزيد بينما نظرت نحو "ميسم" الباكية التي تستقر فوقها تمامًا، لتهمس لها بصوت متقطع:

- شـ..شكرًا لـ..لكِ على مـ..مساعدتك

أنهت جملتها ثم أغمضت عيناها للأبد بينما تذكرت "ميسم" كيف كانت تساعد "هاجر" في الدلوف للقصر من أبواب شتى كي تنجز عملها، مَن أرسل الرسائل لها كانت "هاجر". الرسالة الأولى كانت تحمل طلب رؤيتها ليلًا خارج القصر لأمرٍ ما يهم عائلتها بعد الجريمة الأولى التي ارتكباها سويًا، فإحداهما استدعت "جاد" للخارج والأخرى نحرت رقبته. والثانية كانت تحمل تصريحها الواضح بضرورة قتل "أمير" الليلة. سألتها "ميسم" أول مرة عن هويتها فرفضت ولكن في المرة التالية أخبرتها بأنها زوجة "فياض."

***

(٤)

اتحدت آياز وديلماف تحت راية حكم "شكري" صَيدَن، تولى "أرقم" ولاية ديلماف تحت إمرة عمه بينما تولى "أسد" ولاية آياز، أما "سُليمان" فقد تولى أمر قرية روماف برمتها تحت إمرة "شكري" أيضًا.

لم يصبح للظلم مكان بديلماف ولكن لم ينتهي بالتأكيد.. فهناك دائمًا ذرية غير صالحة، والخير والشر مستمران غير قابلان للفناء ولكن مع راية العدل البيضاء سينتصر الخير دائمًا.

سمح "أرقم" لزوج شقيقته وعائلته بأن يمكثوا في القصر ولكن "أسد" رفض حيثُ أن "رُواء" لا تقدر على العيش بعيدًا عن صحراء آياز الساحرة والمرعى خاصتهم. فبقى في القصر التوأم المتماثل بزوجتيهما و"أرقم"، وأخيرًا "ميسم" شعرت أنها بالفعل في قطعة من الجنة برفقة أحفادها.